الدكتور أبو مدين ا[illegible]غي

نفسية الطفل

اليقظة النفسية

ابو مدين الشافعي

نفسية الطفل

« الطبعة الأولى »

دار الفتوح للطباعة
٧٣ شارع منصور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

إذا أراد الإنسان أن يعرف نفسه فعليه أن يعرف ماضيه ، وأن يقف على أطوار طفولته الأولى ، وعلى مواقف أهله منه . وأرى أنه من الصعب على الشخص أن يبدأ التذكر بطريقة منظمة ليتجه من نفسه إلى المواقف الهامة ليواجهها ويصفها . وقد لاحظت من خبرتى الطويلة فى التحليل النفسى أن الشخص الذى يريد أن يعرف نفسه لا يستطيع الإتجاه المباشر السريع إلى كل العوامل القديمة التى أوقعته فى حالته ، ولذلك رأيت أن أنشر هــذه الصفحات لكي تكون أساساً للتذكر ، فكل قارىء سيتذكر حتما ماحدث له وما تعرض له . وسيرى ما هي الآثار النفسية التى يتعرض لهـا البالغ الكبير الذى مر بهذه التجارب الخاصة فى الطفولة .

وقد يعتقــد قوم أن الفائدة المطلوبة هي جعل الآباء والأمهات يهتمون بتربية أولادهم بناء على هذه النصائح . قد يكون ذلك من قبيل الصدفة ، وأكون أسعد الناس لجعل الأطفال يتمتعون بهذه الارشادات التى تقيهم من الأخطاء

والاضطرابات التى يقع فيها الآباء والأمهات ويوقعون فيها أولادهم .

ولكننى لا أطمع فى هذا ، وإن كنت فى داخل الكتاب ناديت به . والذى أرجوه هو أن يتذكر الناس كلهم ما عقد نفوسهم وما حرمهم من شجاعتهم أمام الحياة وهدوءهم أمام الصدمات. فأتمنى أن يتفهم الناس نفسيتهم وليصلحوا ما يمكنهم إصلاحه قبل الزواج .

إننا من جراء مشكلاتنا النفسية في محنة ، وأطفالنا منها فى عذاب ، وتعود آثار هذا العذاب على الأمهات فى صورة ذل وإرهاق . إن أعظم ألم فى الحياة هو ألم أم لطفل مريض مرضاً مستمراً . وأصل كل مرض هو الإهمال والجهل بحقائق الحياة .

إليكم أيها الشبان والشابات أقدم هذه الصفحات قبل أن تتزوجوا ، لتطهروا نفوسكم من آثار الطفولة كالخجل والتردد والضعف والخوف والوهم ، إرجعوا إلى طفولتكم لتبنوا على أساس متين حياة جديدة سليمة تغلب عليها النعمة

إليكم أيها الآباء والأمهات أقـدم هـذه الصفحات فى أسلوبها السهل لتولوا وجوهكم نحو انفسكم وما جاءها من تعقدات وليـــدة إهمال من كانوا مشرفين على تربيتكم .
وفكروا فى مصير أولادكم وراقبوهم مراقبة دقيقة تقيهم ما وقعتم فيه وتكفيكم فيما بعـد مشقة العلاج والبحث عن الحلول . لعلنا بذلك نكون يوماً قد خطونا حقاً خطوة إلى الأمام وإلا فإننا سنظل نتخبط باحثين عن الطريق المؤدى إلى الخلاص والنجاة . . . . بدلا من السير قدماً إلى العزة والقوة .



الطفل المهمل

هى قصة واقعية قريبة من غرابة الخيال ، قصة تصور ما يعانيه الأطفال من آثار وخيمة للاضطرابات النفسية التى تعكر صفو الجو العائلى وتعرض إلى الآلام المتواصلة . إننا معشر البشر كافحنا طويلا ، ولا نزال نكافح بنجاح باهر ، ضد الآلام الجسمية ، فتغلبنا على آلام العظام والأسنان وقهرنا الميكروبات الفتاكة ، ولكننا لا نزال فى المرحلة الأولى فى كفاحنا ضد الآلام النفسية. وأترك لهذه القصة وحدها مهمة الشرح وفيها بلاغة بيان يصور ما يعانيه الطفل من الأخطار النفسية والجسمية والاجتماعية .

ولد الطفل من والد شديد البنية قوى الصحة عرفه البحر بجولاته فى الملاحة ومقاومة الأمواج ، وكانت أمه جميلة مع حياء وعفة . وعاش الوالدان فى جو هادىء تجمعهما المودة والحنان الزوجى ، وبعد أربعة أشهر من ولادة الطفل بدأت نار الغيرة تأكل فى نفس الأب فذهب يقفل الأبواب والنوافذ مدعياً أن لامرأته إغراء لا يقاوم . وبدأ الأب

يقضى وقتاً طويلا فى مراقبة المنزل وصار شيئاً فشيئاً يشك فى صلة البنوة بينه وبين هذا الطفل الذى تقدمه له زوجته ابنا له . وكانت دهشة الأقارب والجيران كبيرة لما عرفت به الأم من استقامة وإخلاص لزوجها ومحافظة على أخلاق الأسرة وخضوع لمبادىء الدين .

ولم يعرف الناس سبب هذا التحول فى موقف الأب من أسرته سواء كان نحو الزوجة أو نحو الابن ، ولم يظهر السر إلا بعد ما أعلن الأب زواجه من ابنة صديق له وعلم الناس أن الزوجة الثانية اشترطت على زوجها ـ كدليل حبه لها ـ أن يطلق زوجته الأولى وأن يهمل ابنها . وهنا حدثت الحادثة الكبرى اذ خضع هذا الرجل بقوته الجسمية خضوعاً ينبيء عن ضعف نفسي . وتثبت لنا نهاية هذه القصة أن جريمة القتل أهون من هذه الجريمة النفسية، اذ تم ما طلبته الفتاة الطائشة وأهمل الأب ابنه وأنكره وترك الزوجة الضعيفة التي كانت تحبه كزوج وكأب لأبنها البكر وسكتت عن حقوقها بعد الطلاق وكافحت وحدها فى سبيل تربية ابنها الوحيد . وبالطبع مال الطفل على مر السنوات إلى أمه فى تعلق ازداد يوماً بعد يوم وصارت أمه كل شيء بالنسبة إليه، يقدمها على

نفسه ولا يستطيع البعد عنها فى سفر ولو كان ضروريا لعمل هام ، واذا حدث وسافر فإن باله لا يكون مرتاحا وتكثر الأحلام التى تصور له حاجتها اليه ويقطع سفره فجأة ليرجع اليها متفقداً شئونها .

وفى مثل هذه الحال لم يستطع هذا الشاب أن يلتفت لأى امرأة وان ظهر عنده حب فيكون لفترة قصيرة ويشعر الشاب فى أثنائها بنوع من الندم ويتصور نفسه قد خان أمه فيرجع إليها بعطف زائد محاولا إرضاءها كأنه ارتكب نحوها ذنباً .

ويقابل هذا التعلق الزائد نحو الأم بانفصال تام عن الأب ، لايشعر نحوه بأى ميل ولا أى علاقة وعندما استولت الشيخوخة على الأب وتبدلت به الأحوال وصار فى حاجة إلى المساعدة حاول طرق باب ابنه الشاب وقد أصبح رئيس نقابة للعمال . وتحت تأثير الحياء الاجتماعى ساعد الابن أباه مساعدة لا تدل على عطف ، ولكنها تحاول أن تمحو عاراً . وفى آخر لحظة من حياته طلب الأب ابنه لحضر ووقف لحظة قصيرة أمامه وتلاقت النظرتان فى صمت إلى أن فارق الأب الحياة دون أن يلفظ بكلمة معلناً بذلك هزيمته وندمه

على ضعف نفسى انتهى بانتصار الطفل المهمل الذى كان ضعيفا فى يوم من الأيام . ورغم كل ذلك فان الشاب شعر بنوع من الثورة ضد نفسه لأنها لم تبك فراق الأب ولم يكن يتوقع من نفسه هذه القسوة وذهب رغم كل ما قام به الأب من هدم للعواطف الإنسانية يتساءل عن صلة الرحم . ولم يكن إخضاع هذه الثورة بالأمر الهين على الطبيب النفسى ، وكان من العسير على المحلل أن يجد العبارات القصيرة المطمئنة . إن هذا الشاب لا يريد أن يبكي للبكاء فقط وإنما يريد أن يشعر فى هذه اللحظة بفقد عزيز ومثل أعلى ممثل فى الأب . فالجمود ينبىء عن خلو تام يشعر به اليوم أكثر من أى يوم آخر ، فانه لم يكن له أب بادله الحب ولم يخلف له أحد رسالة معنوية أو مادية وليس هناك مسئولية تورث . فليس هناك إذن علاقة وهناك فراغ حيث كان يجب أن يكون الشيء الكثير من العطف والشعور الغزير بالحب والتعلق الكبير بالأب.

وهذا جزء من آثار المأساة النفسية والجسمية فى قصة الطفل المهمل ، فهناك الصراع النفسى القاسي الذى ظهر فى مرحلة الزواج وبعدها . لقد شاهدت الأم تعلق ابنها يزداد وأنه لم يظهر أى ميل للزواج فاندفعت تلح عليه لتذكره بهذا

الموضوع وكانت قد اختارت له منذ طفولته طفلة اتفقت مع أهلها على أن تكون زوجة ابنها فى المستقبل. وجاء اليوم المنتظر وفرضت الأم على ابنها الزواج من الفتاة المختارة . ووجد الشاب نفسه فى مأزق ! إما الخضوع مع الرفض الداخلي ، وإما العصيان مع إغضاب الأم . وتحت تأثير إهمال الأب والتعلق الزائد بالأم قبل الزواج من الفتاة عن غير رضى ، ودون استعداد ودون ميل ، وكان خضوعه المطلق للأم فى هذه المرحلة مؤيداً لعلاقته الزائدة بها بدلا من أن تكون مرحلة انفصال طبيعى واتجاهاً ناضجاً نحو تكوين الأسرة والاستقلال بالذات .

ومنذ زواجه أصبح هذا الشاب يعيش فى شقاء صريح . وآلام جسمية مستمرة : صداع مع توتر فى الجسم ، واضطرابات فى الدورة الدموية ، احتقان فى الوجه أحدث آلاماً فى العين مع شدة احمرارها . واشتدت الأفكار التشاؤمية واستولى التردد وتسلط الانفعال وبدأ الشخص يعانى ليالى الأرق المتواصل ، وبدأ الطواف على الأطباء الجسمانيين وبدأ يتناول الأدوية الكيمائية على كثرتها . وتباعدت آراء الأطباء فى التشخيص : فالبعض أصر على إيجاد السبب فى قاع العين ، والآخر يقول إن ذلك نتيجة لاحتقان الكبد ، والآخر

يثبت علاقة بين التعب في العمل والحالة العصبية وذهب ينصح الشخص بالتخلي عن عمله . ووقع هذا الشاب في حيرة ازدادت شدة عندما صارحته أمه بندمها على ما فعلت وسمحت لنفسها أن تنصحه بترك زوجته والبحث عن أخرى . وهنا وقعت الواقعة وحدث انفجار قلما يشاهد مثـــله عند إنسان . إذ ذكرته هذه النصيحة بموقف والده الذى ترك في نفسه جرحاً بليغاً وقضي على طفولته ودفعه إلى حماية الأم من هجران الأب الخائن المنقاد لشهواته . وكانت أزمة جمعت بين ثورة الأعصاب والنفس هددت الكيان كله بالتداعي بعد اضطراب طال أمده .

وفى مثل هذه الحال يتدخل التحليل النفسى محـــاولا الوصول إلى أصل الداء . ومن عرض القصة يبدو واضحاً أن جذور الداء بعيدة ، ترجع إلى الطفولة وإلى سلوك الأب الذى هيأ الطفل إلى التشبث بالأم . وإننا لا نستطيع أن نتغلب على كل بذور الداء ، ومهما عمل التحليل النفسى فانه لا يستطيع أن يرجع للشخصية تكاملها ، وكل ما يمكننا أن نصل إليه هو القضاء على الآلام باثارة المكبوت من الانفعـالات ضد الأب وضد الأم .

وأكاد أقول إن العلاج فى مثل هذه الدرجة من التعقد

يكون صعبا ويتطلب مدة طويلة من الزمن قد لا يصبر عليها المريض . وهنا أرى أن الوقاية أضمن من العلاج . ونستطيع أن نحكم العقل فى هذه المأساة ونرى أن الأم هى التى وجهت لابنها الضربة القاضية بتدخلها فى شئونه الخاصة. إن كثيراً من الأخطاء تحدث من الأمهات ، ولا يجوز استغلال العطف الزائد لتعبث الأم بمستقبل ابنها . حَذَّرمن على أنفسكن أيها الأمهات التدخل فى خصوصيات أبنائكن عندما يصلون إلى مرحلة الرجولة واحترمن استقلالهم وهو عنصر أساسي للصحة النفسية ، وأوجه هذا النداء بصفة خاصة إلى الأمهات اللاتى شعر أبناؤهن باهمال الأب فى طفولتهم ، فكثير من الآباء يهملون أبناءهم لأسباب عدة مثل الانهماك فى التجارة أو السفر أو غير ذلك من الإسراف فى اللذات والأهواء ؛ ويوقع ذلك الإهمال الابن فى تعلق زائد بالأم .فيجب على كل أم تعرض إبنها إلى إهمال أن تتوقع العطف الزائد وأن تحتاط حتى لا تعقد نفسه وتشاهد ابنها يتعذب أعنف أنواع العذاب النفسى والجسمى .

الطفل العطوف

إننا نشاهد فى أغلب الأحيان بعض الأطفال أكثر عاطفة من الآخرين الذين يظهرون بمظهر الشراسة وعدم الميل إلى الناس بل أن بعضهم يكره أقاربه ويظهر فى سلوكه نوع من العداء المستمر نحو أهله . وبما أن مواقف العطف والحب والائتناس موجودة لدى بعض الأطفال فلم لا نعمل على تعميمها بين كل الأطفال ؟

لهذا يجب أن نعلم أن الطفل حساس منذ الشهور الأولى، ويستطيع إدراك العطف وتمييزه عن الكراهية والضيق . ويمكننا ذكر أمثلة عديدة تثبت أن أغلب الأطفال يميلون للبكاء عند ما نعاملهم بشدة ، حتى لو لم يكن الأمر يتعدى التعبير الوجهى . فان الطفل يدرك ذلك ويستجيب حسب حالتنا النفسية : يبتسم عند ما يعبر وجهنا عن الراحة والمرح ويبكى عند ما يعبر عن الضيق والغضب . ونشاهد الأطفال يتأثرون بسهولة لتغير مزاجنا ، ولهذا لا يجوز قطعياً لأم أن تبكي أمام طفلها فان ذلك يثير فى نفسه حزناً، وتكرار البكاء

عند الأم واستمرار إدراك الطفل لهذا البكاء يحدث فى داخل نفسه ميلا إلى الحزن يتجلى فيما بعد ويتخذ مظاهر مختلفة تؤدى إلى الانطواء على النفس

ونذكر بهذه المناسبة أن المرض النفسي يكون ناشئاً دائما عن سيطرة حالة نفسية معينة على الحالات الأخرى مهما كان نوعها . وسيطرة الحزن أو غيره تأتى غالبا من الطفولة الأولى ، ويكون ذلك سببا فى إضطرابات عدة أهمها الخوف من الناس وعدم الميل إليهم ورغبة الفرار منهم .

ونشاهد من جهة أخرى أن الطفل السليم يبدأ بعد السنة الأولى فى التعبير عن عواطفه بالاستسلام فى أيدى الأشخاص الذين يعيشون فى محيطه ، بل نرى بعض الأطفال يقومون بفعل التقبيل المصحوب بالابتسامة اللطيفة ويتخذون أوضاعا مريحة بين ذراعى من يحملهم تعبر عن حنان وهدوء واطمئنان وهذه لذة نفسية تربط بين الطفل والمجتمع ، وكثيراً ما تكون هذه المواقف سببا فى إقبال الأقارب على زيادة فى العناية ويؤدى ذلك إلى مساعدة الطفل على نموه الطبيعي بالحديث واللعب .

وخلاف ذلك ما نجده عند الأطفال الذين عاشوا فى جو يسوده الاضطراب و « النرفزة » والضوضاء والصراخ ، فانهم يعبرون دائما عن الحذر والخوف والابتعاد عن الناس ويكون ذلك سببا فى تأخر نموهم النفسى ، ويميلون إلى الوحدة التى تحرمهم من إكتساب مرونة الكلام ، ويترتب على ذلك الكثير من الفشل فى حياة بعض الأفراد .

ونؤيد هذا الرأى ببعض الأمثلة التى أثبتها التحليل النفسى : شعر شخص بتعلق زائد نحو أمه ونحو سيدة إتبعت نحوه الدلال واستعملت كل وسائل المكر لتحتفظ بعطفه دون أن تريحه ، وتعده مؤكدة حبها لتخونه بعد ذلك خيانة صريحة . وجاء الشاب يعبر عن تعبه النفسى وثورته ضد الحياة والناس ، واشتد غضبه وضجره ورغب فى الانتحار. وبعد دراسة حالته دراسة دقيقة تبين أنه كان فى طفولته معرضا لتقلبات نفسية ناشئة عن ثورات الأم ضد والده الذى كان متزوجا بامرأتين ولم تكن حياة الأم إلا سلسلة من الصراع مع الزوجة الأخرى ، وكانت تقضى وقتها فى أغلب الأحيان باكية حزينة قلقة على مصيرها . وأثر ذلك

في نفس الطفل الذى أصبح بعد ذلك منحرفاً انحرافا واضحا فى سلوكه وفى عواطفه على وجه الخصوص.

ومن الغريب أننا فى بعض الأحيان نجد أن الحالات النفسية المضطربة عند الطفل تحدث نوعا من العطف الزائد عن الحد. وقد شوهد عند الاطفال المصابين بالصرع أو بعض الامراض الاخرى ميلا إلى الناس، وهذه العلاقة فى صورة عطف هى رد فعل للخوف المستولي على نفس الطفل.

ووجدنا عند فتاة جميلة مثقفة عجزاً كاملا فى القدرة على الحب، وكانت دائماً تشعر أنها محرومة مما تشعر به الفتيات الأخريات فى هذا الميدان الطبيعى الذى يربط بين فرد من جنس بآخر من الجنس الآخر. وكان هذا الحرمان عائقا لها عن الزواج، ووصلت إلى الثلاثين من عمرها وهى تبحث عن الشخص الذى يليق لها وترضى عنه كزوج تطمئن لحبها له طول الحياة. والسبب فى هذا الاضطراب العاطفى راجع إلى الأم التى كانت حزينة باستمرار وكانت تهمل بذتها ولا تعنى بها العناية الكافية تحت تأثير حالتها النفسية. فلم تشعر الطفلة بحرارة الأمومة وحنانها، ولذلك لم تشعر طول حياتها

بأى ميل للحب نحو الآخرين . فموقف الأم أحدث فساداً عاطفيا .

ونذكر أيضاً حالة سيدة تعرضت لحرمان عاطفى فى الطفولة إذ أرغمتها الظروف على أن تعيش يتيمة الأم والأب ، وعرضها ذلك الحرمان إلى آلام متنوعة فى الحياة ، ودفعتها حالتها النفسية التى بدأت منذ الطفولة إلى عدم الاستقرار فى الحياة الزوجية وعرفت الزواج والطلاق عدة مرات وكأنها كانت تشعر بنفسها مدفوعة دفعا ، لا تميل إلى الاستقرار فى حالة واحدة .

والخلاصة أن العناية بالمواقف العاطفية لدى الطفل من الموضوعات الهامة فى تكوين النفس وتوجيه السلوك فى الحياة كلها : فهناك أطفال يبدأون منذ الطفولة الانطواء على النفس لأنهم لا يجدون حولهم الجو المناسب لسنهم التى تتطلب لعباً ومرحا . وهناك أطفال يتأثرون من هذا الحرمان ويتأثرون بحزن الأم وتنطوى نفسهم على الخوف ويتعرضون لتعلق عاطفى واحد فى اتجاه معينة مهما كانت الصعوبات والمشكلات التي تعترضهم في حبهم الثابت . وأما الأطفال

الذين يصابون بآلام منذ الطفولة فإنهم يسرفون فى الميل والحب ويكون ذلك تعويضا للخوف المكبوت . ونجد أيضا صلة بين الحالة العاطفية لدى الطفل المحروم منها وبين عدم الاستقرار فى الحياة الزوجية وعدم القدرة على الحب . وكثيرون من الناس يشكون من هذه الحالة النفسية التى تؤدى فى الغالب إلى اضطراب فى الحياة الزوجية والاجتماعية خصوصاً فيما يتعلق بداء الغيرة الذى ينشأ من إهمال الأطفال للاعتناء بالآخر .



الطفل الخجول

يبدأ تكوين طبع الطفل منذ السنة الأولى . وليس طبع الطفل وليد صدفة ، ولكنه من صنع الأم . فكل طفل قابل لاتباع الطريق الذى يرسم له فى طفولته ، فما علينا إلا أن نتفطن لبعض الحقائق النفسية لكي نسعد طفلا ونزوده بطبع ينفعه طيلة حياته . فالطفل يكون عجينة لينة فى أيدينا فى السنة الأولى ، ويتقرر مصيره فى الحياة على أساس معاملتنا له . وهذه المعاملة تحتاج إلى معرفة حقيقة هامة عن نفسية الطفل ، وهذه الحقيقة تثبت أن كل طفل منذ آخر السنة الأولى يدخل طوراً هاماً فى النمو النفسي ، ويمتاز هذا الطور من النمو — عند كل الأطفال — بالميل إلي النفي والرفض . فيجيب بحركات النفى على أغلب الطلبات المقدمة له حتى لو كان يرغب فى الشيء المعروض عليه ، وبعدما كان يقبل على الأكل بشراهة وبطريقة مستمرة خاضعاً للتوجيه المفروض عليه يبدأ يتغير فى موقفه : فيقبل تارة ويرفض تارة أخرى ، وتكون هذه أول علامة لبزوغ شخصية الطفل الصغيرة

فيحاول برفضه إثبات ذات تريد أن تستقل . ونلاحظ أن هذه المرحلة من النمو النفسى توافق قدرة الطفل على المشى وتكون الرغبة في فرض الإرادة مسايرة للاستقلال الجزئى عن الأم بالمشى .

يجب أن نعرف أن الميل إلى النفى والرفض سلوك مشترك بين كل الأطفال فى سن معينة فيكون ذلك مبيناً لنظام مفيد تتبعه الطبيعة لتكوين الطبع ولا يجوز لنا أن نقضي على هذا النظام فارضين إرادتنا بتدخل عنيف قد يفسد طبع الطفل .

وفعلا فإننا لاحظنا أن الأم التي لاتحترم ميول طفلها فى سن النفى والرفض تخلق طفلا ضعيف الشخصية خجولا لا يعرف كيف يدبر أموره بنفسه . ولعل المرء يجد فى هذه العلاقة بين أخطاء معاملة الطفل فى السنة الثانية من عمره وبين تكوين طبعه مدى حياته نوعاً من الغرابة . والحقيقة أن دراسة مواقف الطفل الصغير وهو يقول : « لا » توضح لنا أشياء كثيرة هامة لها خطرها فى تكوين الشخصية . إننا نشاهد الطفل يرفض أشياء كان يرغب فى الحصول عليها بشدة ولا نفهم سبب رفضه . وكثيراً ما يتشبث بشيء ويعند في الخضوع عند ما نحاول تخليصه من يده ، ويمكننا أن

نلجأ إلى حيلة بسيطة مفيدة تساعدنا على احترام هذه الإرادة الصغيرة التى تعبر عن نفسها بطريقتها الخاصة وهذه الحيلة تقتضى أن نقدم للطفل أى شىء آخر لنشاهده يتخلى عن الشىء الأول ليتشبث بالثانى ، ويهيأ له أنه اختار من نفسه هذه الحركة ويعطيه ذلك شعوراً بحريته .

وبطريقة التشويق إلى موضوع جديد نخرجه من التشبث بالموضوع القديم وفى هذه الحالة نكون قد استخدمنا ظاهرة نفسية وهى حب الاستطلاع لعدم تعريض ظاهرة حب الاستقلال إلى التلاشى . وهذه الطريقة فى تحويل الطفل عن عن موقف من مواقفه تنمى درجة الانتباه دون أن تضعف الإرادة ، بعكس طريقة العنف التى تدفعنا إلى أن نقول للطفل : « لا » عند ما يقول هو : « نعم » ونقول له : « نعم » عند ما يقول هو : « لا » فكثيراً ما نكسر نفسه باستعمالنا القوة ، إذ يشعر أنه مغلوب على أمره فى كل محاولة من محاولات الاستقلال فى حدود قدرته وهذه الطريقة البدائية التى تقوم على العنف تؤدى إلى أحد أمرين : إما الخضوع المطلق، أوالثورة والعناد . ويكون الخضوع مصحوباً بخجل وهو عبارة عن خوف وهمى من الناس وعدم ثقة مطلقة

بالنفس وتردد مستمر عند القيام بمشروعات جديدة . وفى أغلب الأحيان يكون الخجل سببا فى فشل الشخص فشلا تاما فى حياته كلها .

ونلاحظ على الأطفال الذين سيطرت عليهم الأم سيطرة تامة فى الطفولة ولم تترك لهم مجالا لإبداء رغباتهم الخاصة أنهم يكونون دائمى التعلق بالأم ولا يستطيعون مفارقتها ، كما أنهم لا يعرفون كيف يكسبون أصدقاء يبادلونهم تجارب الحياة . ويؤدى ذلك إلى توقف واضح فى النمو النفسي ، ويشعر الشخص بالتردد فى أفعاله لأنه فى كل حركة يحسب حساب أمه ويهيأ له وجود شخص بجواره يراقبه ويصرخ في أذنه : «لا» ، كما كانت أمه تفعل وقت الطفولة . وكثير من الناس يتهاونون فى هذا الميدان ويعتقدون أن علماء النفس يغالون فى تحليلهم ويسرفون فى تدخلهم ، ولكن الواقع يثبت أن هناك ضحايا عديدين ضاعت حياتهم بسبب هذه الأخطاء .

ومما يدل على أن الخجل والتعلق بالأم راجع إلى سيطرة الإرادة الخارجية التي تقتل إرادة الطفل هو ما نشاهده فى حالة وجود أب ضعيف الشخصية وأم مسيطرة ومستبدة

برأيها فى المنزل . ففى مثل هذا الوضع النفسى للأسرة يظهر الأطفال كلهم ميالين إلى الخجل ، حتى لو لم ترتكب معهم الأخطاء المذكورة فى سن الطفولة المبكرة ، وذلك لأنهم يخشون الأم خشية زائدة عن الحد لخضوع مثلهم الأعلى — وهو الأب — خضوعا واضحا لإرادة الأم وسطوتها .

يجب على كل شخص يريد أن ينجب أطفالا أن يتحرى فى اختياره لزوجته . ويتزوج الكثير من الشبان وهم لا يفكرون إلا فى أنفسهم وإرضائها من حيث الجمال واللذة ولكنهم لا يفكرون فيما سيحدث من بعد فيما يتعلق بمصير الأولاد . ويكاد يكون من الضرورى أن يُوجَّه كل زوج إلى العناية بالمبادىء النفسية التى تضمن للطفل صحة تامة ، وطبعا سليما .

ويمكننا أن نجد عن طريق التحليل النفسى حقائق خطيرة توجهنا جميعا إلى الموقف السليم نحو الطفل : نذكر حالة شاب فرضت عليه الأم سيطرتها منذ السنة الأولى ولم تمكنه من الفرصة التى يعبر بها عن شخصيته ، وكانت المراقبة تحيط به فى كل أفعاله وتصرفاته إلى أن وصل به الأمر إلى الشعور

بالخوف المستمر من كل شيء ، ولم يكن فشله في المدرسة إلا مقدمة لفشله في الحياة ، وكانت مخالطته لفتاة تعتبر في نظره حادثا خطيرا يجب الاستعداد له بكل الوسائل التي يمكنها أن تخفى عجزه وبعد تردد طويل يتخلى عن موقفه وإلا شعر برعشة عامة في جسمه وحمرة ظاهرة في وجهه . كما أنه في حياته العملية كان دائم الاتصال بالآخرين ليسألهم رأيهم في مشروعاته ، وكان يعجز عن تنفيذ أى قرار يتخذه . وعندما حلل نفسيا عبر عن كره خفى نحو والدته ، وذلك لأنه فهم أنها كانت السبب في قيوده النفسية التي تقيده في كل خطوة من خطوات حياته . ومن أخطر ما يصادف مثل هؤلاء المقيدين هو تلك الرعشة الداخلية التي قد توحي بخوف دون أى سبب ، وتحدث الأحلام المزعجة التي تصور للشخص صراعا مستمرا ويصحو شاعرا بالتعب والإنهاك .

ويمكننا أن نتفادى كل هذه الاضطرابات ونتيح للطفل نموا طبيعيا إذا عرفنا كيف نحترم حريته في الحدود المعقولة ولا بد أن نستعمل الحكمة والحيلة قبل التهور والاندفاع في استعمال القوة والعنف .

والخلاصة أن الطفل فى أواخر السنة الأولى يبدأ يفرض إرادته بالنفى والرفض والتشبث فيجب تقدير ذلك واعتباره خاضعا لقانون النمو النفسى ، فلا يجوز فرض إرادتنا على الطفل بطريقة خشنة ، بل يمكننا أن نوجهه لرغبتنا بالحيلة واستعمال اللين وبذلك نمكن الطفل من سيره الطبيعي فى مراحل النمو النفسى . ولا يجوز للأمهات إهمال المعلومات النفسية التى توضح الحقائق العامة والتى يتعرض لها كل طفل فى تكونه . وبذلك نوفر على الشخص متاعب ترجع لظاهرة الخجل والخوف والضعف واستمرار التعويل والتعلق بالأم وعدم التمتع بالإستقلال فى التفكير والإنتاج .

الطفل الوحيد

يفضل أغلب الأزاج فى عصرنا الحديث الاقتصار على طفل واحد . وهذه الطريقة مريحة للأزواج وقد تكون مفيدة للطفل إن راعينا بعض الظروف الخاصة بتربية الطفل الوحيد، وفى مثل هذه الحالات تظهر فائدة علم النفس وخدماته الواسعة النطاق . يمكن لعلم النفس أن يتنبأ عن الجو العاطفى الذى يحيط بكل طفل وحيد : يندفع الأبوان فى تقديس طفلهما الوحيد ويوجهان كل حبهما له لدرجة إهمال حبهما الزوجى المتبادل ، كما أن عناية الأم تزيد عن الحد لدرجة تشل حركة الطفل وتعرضه للضعف بكثرة المحافظة عليه . يستغل الطفل الوحيد عطف والديه استغلالا زائداً عن الحد ويتعود إخضاعهما لكل رغباته ويكون عنده هذا الخضوع فكرة خاطئة عن معاملة الناس ، ويميل إلى أن يعامل فى خارج المنزل بمثل المعاملة التى يعامل بها فى الداخل . ومن هنا يبدأ صراع عنيف بينه وبين المجتمع : يريد السيطرة المطلقة فى كل الأوساط ويعرضه فشله إلى ألم نفسى يدفعه إلى التنفيس فى

المنزل ، ويقف فى بعض الأحيان مواقف انفعالية شديدة قريبة من الانتقام .

هذا ما يحدث عادة فى كل الأسر على اختلاف أجناسها ومواطنها عندما ينفرد الطفل بمكانته محتكراً عطف والديه . وكثيراً ما يلجأ الأهل إلى العالم النفسى سائلين عن حل مشكلة تفاقمت آثارها . وأعترف أن الحل يكون صعباً بعد ما يصير الطفل بالغاً وتنمو شخصيته منحرفة انحرافاً ثابتاً . وقبل أن أشير إلى ما يجب اتخاذه فى الطفولة من احتياطات يراها البعض مستحيلة أقدم صورة لما يصل إليه الطفل الوحيد من انحراف خطير وما يطلبه الأهل من العالم النفسي أن يقوم به لينقذهم وينقذ الطفل .

جاء أب يشكو من سلوك ابنه فى المنزل والمدرسة والشارع ، لقد بدأت المشكلة بالحاح زائد من الطفل فى طلب المال وكان الوالد مدفوعاً تحت تأثير عاطفى إلى تلبية كل مطالبه فكان يقدم لابنه كل ما يطلبه ، واستطاع الطفل أن ينتصر بسهولة على والده فى الحصول على المال أولا وفى طرق استعماله ثانياً فأسرف الطفل فى التدخين وجمع حوله جماعة من الطفيليين

علموه فى وقت مبكر الاتصال بالنساء واستطاع الطفل أن يضع يده على عجلة القيادة واحتكر سيارة والده . وكان كل انتصار يدفعه إلى تقديم مطالب أخرى أصعب فى التنفيذ . وعند ما كانت طلباته ترفض بدأ يستعمل القوة تارة والمكر تارة ثانية ليصل إلى تحقيق رغبات لا فائدة منها، وإنما كانت رغبته الحقيقية هى الإنتصار .

وهنا نلاحظ كيف ينتقل الإنسان من شذوذ بسيط فى السلوك ناتج عن رغبة التمتع بالعطف والتشبث بمعاملة الطفولة إلى سلوك خطير يعرض الشخصية كلها للتدهور. فعندما كان الطفل يشعر بضرورة الخضوع للمدرس فى الفصل كان يتعرض إلى ضيق زائد ويفر من المدرسة ويكثر من الغياب ، وعند ما كان يحضر الدرس فانه يأتى مزوداً بمبالغ كبيرة من النقود ليعرضها على مكتب المدرس . وفى المنزل يقوم بسلوك غريب قلما تجده فى أى مجتمع من المجتمعات مهما كانت حضارته بدائية : تراه أحياناً يخرج عارياً من الحمام ولا يبالى إن كان هناك ضيوف من الجنسين ، بل إنه يقف أحياناً ويريد الاسترسال فى الحديث ، وعند ما يلام يرد قائلا : ألم أكن أفعل هذا وأنا صغير فلم لا أفعله وأنا كبير . وكأنه

لا يعترف بكبره ويريد التشبث بطور الطفولة. وعندما تعارض رغباته ولا تنفذ يصل به الأمر إلى كسر الأشياء النفيسة .

ومما يثبت أنه يريد الانتصار متصوراً نفسه فى معركة نراه يضع السيارة تحت حراسة شخص ثم يأتى هو نفسه فينتزع بعض الأدوات ليطالب بها الحارس . وأدت به هذه الأعمال الشاذة والمواقف الغريبة إلى مستشفى الأمراض العقلية حيث كان يقوم أيضاً ببعض أعمال المكر القوية ، ورفضته المستشفى ولم يستطع أى معالج مباشرة شئونه لأنه كان يؤذى المعالجين بالضرب والشتم . واحتار أهله أمام هذا الموقف وأدركوا أن ابنهم مهدد بالوصول إلى عذاب أكيد .

هذه حالة خطيرة من حالات الطفل الوحيد وغيرها كثير، فان كان الطفل الوحيد لا يصل دائماً إلى مثل هذه الحالة من الخطورة فانه يتعرض إلى اضطرابات أخرى لا تقل عنها فى التعقيد لأننا نشاهد أغلب الأشخاص الذين عاشوا فى طفولتهم منفردين دون أن يكون هناك من يشاركهم فى عطف أهليهم يفشلون فى حياتهم الزوجية . فالشخص الذى يكون طفلا وحيداً يتعود خضوع أهله له ، ولا يكون قادراً على

بذل مجهود للحصول على عطف الآخرين وبهذه الطريقة فانه فى حياته الزوجية لا يقوم بما يطلب منه عادة من مواقف تبادل العطف ويكون دائماً فى حالة طلب بصورة تكشف عن أنانية منفرة . ويؤدى هذا السلوك إلى نفور من الطرف الثانى .

هذا ما يمكنه أن يحدث عن تدليل الطفل الوحيد . وكما أنه يكون من الصعب على المحلل أن يجد حلا لكل مشكلات السلوك بعد البلوغ فانه يكون هناك بعض الصعوبة فى ضبط عواطف الأهل ليكفوا عن التدليل الزائد عن الحد . وأعتقد أن الذين يفسدون الطفل الوحيد هم الأهل الذين حاباهم الحظ بيسر فى المادة يساعدهم على الخضوع لكل نزوات الطفل . ويا حبذا لو استعمل هؤلاء مالهم لإدخال طفلهم الوحيد — بعد سن السادسة — مدرسة داخلية ليعيش فى جو يسوده التساوى فى المعاملة ، لأنه يكاد يكون من العبث أن نطلب من الأهل الذين توفرت أموالهم أن يكفوا عن تلبية كل مطالب الطفل . وأما حالة الطفل الوحيد فى البيئات الفقيرة فهي نادرة ، إذ نلاحظ كثرة الأطفال فى الأسر الفقيرة ، وفي حالة وجود طفل وحيد في أسرة فقيرة فان الفقر كاف ليحد من الطغيان العاطفي عند الأهل ومن الإسراف والتكبر

عند الطفل بعد بلوغه . فالفساد النفسى الناتج عن موضوع بحثنا هذا لا تتوفر شروطه إلا فى الطبقات الغنية ، ويمكن لهؤلاء بشيء من التضحية العاطفية أن ينقذوا حياة طفلهم وأن يتجنبوا أعوص المشكلات الاجتماعية فيما بعد .

وهنـاك توجيهـات عامة تشمل كل الأطفال ، ويجب الاهتمام بها بصورة خاصة فيما يرجع للطفل الوحيد . إن الطفل يكون في حالة بحث عن العطف بصورة دائمة ، فلا يجوز مسايرته لأن ذلك يعوق نمو الشخصية. فلا بد أن يكون العطف مقتصراً على الضرورى فان تعذر ضبط العواطف لأى سبب من الأسباب فيستحسن ابعاد الطفل .

وأغلب الاتجاهات المنزلية فى التربية يسيطر عليها الإسراف فى التدليل خصوصاً من الأهل الذين تقدمت بهم السن ، وكذلك الجد والجدة . ويجب على الأهل أن يفهموا صعوبة هذا الاتجاه التربوى الذى ننادى به ، ويمكنهم بشيء من المثابرة ترويض النفس عليه ليصلوا الى تحقيقه ، وتعبهم فى الكبت للتقليل من الاندفاع العاطفي أخف من كل أنواع التعب الذى يمكنهم التعرض له باهمالهم وانطلاقهم فى مسايرة عواطفهم الشديدة .

الطفـــل والأب

أعرض حالتين هامتين تثبتان لنا أهمية العلاقة النفسية بين الطفل والأب ، ان حب الأمومة بقوته الجارفة معروف للجميع ولكننا لا نعرف أن هذا العطف يحاول فى بعض الأحيان أن يحرم الطفل من حبة لوالده . وكثيرا ما تفسد الأم بغيرتها وشدة علاقتها بابنها تربية الطفل وتقضى على شخصيته . وأهدف من هذا إلى تحذير الأمهات من الأنانية فى حب الطفل لأن هذه الأنانية — التى تحاول الانفراد بالحب — قد تكون السبب فى أمراض نفسية خطيرة .

رزقت أسرة ببنتين كبراهن وصلت إلى السنة الثالثة عندما اشتد الخلاف بين الوالدين وتفاقم وأدى إلى فراق وطلاق واختفى الأب عن أعين الطفلة ، وكانت هذه تلح فى السؤال عن أبيها ، ولكن دون جدوى ، لأن الام صارت تخفى أخباره عن ابنتها بل إنها اتجهت إلى الحط من قيمته فى عين ابنتها ولا تذكره إلا بالسوء . وتحذرها دائما من خطره إن حاول أخذها . وأشرفت الأم على تربيتها ومكنتها من ثقافة راقية ،

ووصلت الفـــتاة إلى آخر الأجواء فى تعليم جامعى متين . ولكن المكانة العلمية والمركز الاجتماعي والعطف الغزير من الأم كل ذلك لم يشعرها بالسعادة التي يتحدث عنها الناس بل فاننا نراها تقضى وقتا طويلا سابحة فى عالم الخيال كأنها تبحث عن فكرة ضائعة أو تسأل نفسها عن سر غامض تريد توضيحه فى ذهنها . وانقلبت هذه الجولة الذهنية إلى ضيق وقلق وشدة حساسية ، واضطربت صحتها الجسمية اضطرابا محسوسا وأصبحت الأمعاء لا تستقر على حال ، وكان أقل إهمال يعرضها إلى سوء هضم يؤدى بها إلى أرق وتعب .

ولم يفطن أحد إلى أن أصل هـذا الاضطراب نفسى وأنه يرجع إلى نقص خطير فى شعورها العاطفى . واتضح الموقف منذ اليوم الذى بدأت تشعر فيه بميل إلى مخاطبة أشخاص فى الشارع دون أى سابق معرفة ، وصرحت أنها تشعرفى داخل نفسها بميل يشبه ميل الطفل نحو أبيه ، وكثيرا ما كانت تطرد من فكرها صورة الأب التي كانت تفرض نفسها فرضـا على ذهنهـــا . وبدأت تسمع فى داخـل نفسها جمـــلا واضحة تكرر قائلة فى سر « لعله أبى ، ليته يكون أبى » .

وكانت هذه المواقف الشاذة كلها تثير فى نفسها الخوف على عقلها ، وكثر تساؤلها عن سر هذه الصور الملحة إلى أن جاءت إلى التحليل النفسى معلنة خوفها وعجزها عن مقاومة هذا الخوف . وثبت فى أول خطوة من خطوات البحث النفسي أن هذه الفتاة التى بلغت سن الرابعة والعشرين لم تشعر بأى ميل عاطفى نحو الرجل ما عدا تعلق زائد عن الحد وفى صورة حب مكبوت جارف داخل نفسها نحو أحد مدرسيها وذلك عندما كانت فى سن السادسة عشرة من عمرها ، واتضح لها من بعد أنها لم تكن تحبه حبا جنسيا مما يدل على أن حبها كان تعويضا للنقص الأساسى فيما يرجع الى فقد الأب والحرمان من عطفه .

والمهم أن هذا الشعور بالحرمان كان مصحوبا بحزن شديد ظل مكبوتا طيلة هذه الأعوام من حياتها ، وجاء التحليل النفسى طالقا لعنان الانفعال المكبوت وكان التعبير عن هذا الحرمان شديدا وبدأت الفتاة تتجه فى ذهنها إلى محاكمة والدتها ، وأصبحت تشعر بأنها المسئولة عن كل ما عرضها للاضطراب النفسى والجسمى والاجتماعى . وكان هذا الاتجاه طبيعيا ، ونرى معه أن الأم كانت مسئولة وأنها

عرضت ابنتها لعذاب كبير لا لشيء إلا لترضى كبرياءها وأنانيتها .

وهذه الحالة تصور الخطر الذى يهدد الطفل عندما تكون علاقته بأبيه ضعيفة ، إذ يعتبر الأب المثل الأعلى ويجب على كل أم أن تسعى لتحسن العلاقة بين طفلها وزوجها خصوصا وأن الطبيعة منحت المرأة حساسية تمكنها من مسايرة الطفل فى أدق تغيراته وتقلباته كما منحتها عقلا يمكنها به أن تفهم زوجها ، فهي الصلة الطبيعية بين الطفل والأب ، وعليها أن تربط لا أن تفصل .

ولعل بعض القارئات يجدن فى هذا التحذير مبالغة ، ولذلك يحسن أن أذكر مثلا آخر :

طفل مات أبوه قبل ولادته وتربى يتيما ، وأغدقت عليه الأم كل عنايتها وحاولت أن تعوضه عطف الأب ورأت الا تحدثه عن أبيه وألا تذكر له وفاته وكانت دائما تمتنع عن الإجابة على أسئلته عن أبيه . وعندما وصل الطفل إلى سن العاشرة واختلط مدة طويلة بالزملاء فى المدرسة وعرف أن لكل منهم أبا يحبه ويحافظ عليه بدأت الحيرة تدب في نفسه ،

وأصبح يسلك سلوكا عدائيا نحو أمه ونحو غير أمه ، يؤذى زملاءه دون سبب كأنه مدفوع بدافع الغيرة الشديدة . وكلما زادت الأم في محاولات الارضاء زاد فى الثورة شدة وعنفا . وبعد ما كان الطفـل متتبعاً لدروسه مسايرا لزملائه أصبح عاجزا عن التركيز والتحصيل .

ويختلف هذا المثل عن الأول فى كون الأم غير حانقة على زوجها وموقفها من الابن موقف المـدافع . ولكن إخفاءها لموت الأب لم يكن متفقا مع الوضع الطبيعى ، وغاب عن الأم اتصال ابنها بأطفال لهم آباء يسمع عنهم ابنها وقد يراهم يداعبون أبناءهم ويعطفون عليهم .

والخلاصة أن علاقة الطفل بأبيه علاقة ضرورية يجب أن تكون طبيعية ولا يجوز للام أن تتعرض لها بسوء ، كما أن التصرف فى الحالات الشاذة التي تتطلب درسا لا تكون إلا باذن المختص فى الشئون النفسية . وعلى كل لا يجوز لنا أبداً أن نتجه بالطفل اتجاها مضادا للطبيعـة ، فلا بد أن يعرف الطفل أباه ليحبه إن كان حيا أو ليبكيه إن كان ميتاً.

الطفل الموهوب

هذه قصة طفلة موهوبة أعرضها لتكون مثلا علمياً وعبرة عملية. وأبدأ أولا بذكر ما قاله أبوها: «ابنتي الصغيرة خارقة الذكاء وعمرها عشر سنوات، وهي موسيقية كجدها لوالدتها، تعزف البيانو بشكل مدهش وتميل للرسم، وعلى الرغم من الذكاء الخارق فانها متأخرة جداً في دروسها، وعيبها أنها لا تستطيع أن تحصر نفسها في الدرس، وهي كثيرة الحركة نشطة واسعة الخيال، تدعى معرفة كل شيء وتوفق بذكائها في الخروج فائزة إذا أحرجت، شخصيتها قوية تحفظ الدرس بسرعة وتنساه بسرعة، سقطت في الامتحان ثم أعادته فسقطت ثانيـــة . وهي ترى أن في الساعة مائة دقيقة . وأعطيت مسألة حسابية بسيطة فكانت خاطئة، وأعطيت قسمة بسيطة فكانت مغلوطة، وكذلك قل في الإملاء وفي تصريف الأفعال مع أنها كانت تعرف كل هذا عند ما كانت أمها تقوم بتعليمها في الصيف، لفظها بالعربية وبالفرنسية في غاية الروعة، وإذا تحدثت باللغتين يكون الحديث صحيحاً

وتستعمل كلمات وجملا قوية رائعة . وقد طلبت من المدرسة أن تنقلها على الرغم من سقوطها على أن أختار لها معلمة تساعدها على تحصيل دروسها . إنها مرحة صاحبة نكتة . وتدهش وتستغرب لقلقنا عليها ، فهى لا تقدر معنى السقوط أو النجاح فى المدرسة . ما هى الطريقة لجعلها تواظب على الدرس مع الفهم والحفظ ؟ وأقصد أن يبقى المحفوظ راسخاً في ذهنها فلا تنساه وأن تركز بانتباه وأن تتحسن وأن تتقدم » .

إذا حللنا هذه الحالة بناء على المعلومات التى وصلتنا فاننا نقف باهتمام عند جملة الأب « أنها كانت تعرف كل هذا عند ما كانت أمها تقوم بتعليمها فى الصيف » ، ومن ناحية أخرى فاننا نلاحظ أن هذه الطفلة تنجح في الميدان الفنى القائم على المواهب كما أنه فى استطاعتها أن تنجح فى الميدان المدرسى والدليل على ذلك تقدمها على يد والدتها . ولا شك أن هذه الطفلة تمتعت بدلال زائد جعلها تعول على الآخرين وهى تعتبر العلم كغذاء تقبله من أمها. وتحتاج حالتها هذه فى وقتها الراهن إلى دراسة لتوضيح المراحل التى يمكن للطفل أن يجتازها لكى لا يتعرض إلى فقد التكيف والوقوع فى

الاضطرابات . فيجب أولا أن نعرف جيداً أن الامتحان المدرسى ليس مقياساً للذكاء ولا يجوز لنا بأى حال أن نعول عليه لنحكم علي طفل ولنبنى عليه معاملتنا له وتوجيهنا المدرسي ، بل بالعكس فان الكثير من الامتحانات المدرسية تكون سبباً فى تأخير بعض الأطفال لأنها توحى لهم بالنقص واذا رجعنا الي حالة هذه الطفلة فاننا نرى فيها طفلة موهوبة يمكن أن نصل بتوجيهها توجيهاً علمياً الى خلق شخصية نادرة فى الإنتاج الفني .

إن التعليم المدرسي يهتم بكمية المعلومات ولا يهتم بطريقة التفكير واستثمار المواهب . فيجب أن نعتنى بالطفل الموهوب عناية خاصة تنمى مواهبه بالتمرين بدلا من أن نقتلها بكثرة التلقين . ويمكننا على أساس تقوية المواهب تزويد الطفل الموهوب بالمعلومات الضرورية دون أن نحرص الحرص الشديد على إخضاعه للقواعد العديدة الموضوعة لكل الأطفال دون تمييز بين استعداداتهم . ولا ننسي أننا اضطررنا اضطراراً لجمع الأطفال فى فصول جمعاً لا يهتم بالفوارق الشخصية. وهذا الاضطرار راجع الى فقرنا فى ميدان التعليم لأن الميزانيات فى الدول كلها تعطى أهمية كبرى للدفاع وغير ذلك من الموضوعات التى تبعد عن ميدان الإنشاء فى إصلاح الانسان .

إن الطفلة الموهوبة التى أشرنا اليها مالت إلى الناحية الفنية لتلاؤمها مع الحرية التى تبعد عن القواعد وقيودها ، ولنا مثل فى قولها : «إن الساعة تحتوى على مائة دقيقة» فانها بهذا القول أرادت أن تثور على تقسيم معين فاستعملت حريتها واستلهمت ميلها الفنى واختارت المائة لأنها عدد كامل وهو شبيه بالشكل الجيد الذى يبحث عنه الفنان .

ونعلم أن مثل هؤلاء الأطفال لا يليق أن نعلمهم الحساب بطريقة مجردة جافة ، فانك إن طلبت من شخص كبير أن يقوم بحركات رياضية لا تعتبر أعمالا ذات نتيجة خارجية فانه لا يلبث أن يصاب بالملل ويتخلى عن رياضته ، وأما الرياضة التطبيقية التى تظهر فى صورة أفعال مثل التجديف ولعب الكرة والسباق وغير ذلك فانها تكون رياضة محببة لأنها تثير الاهتمام والحماس فاذا كان هذا هو الأمر مع الكبار فما بالك مع الأطفال الذين تطلب منهم أن يقوموا بالعمليات الحسابية المكونة من أرقام لا تعنى أى شيء بالنسبة للطفل عموما وللطفل المعين خصوصا ويقتضى الأمر على أساس علم النفس أن نمزج العمليات الحسابية بموضوعات تهم الطفل وتثير اهتمامه الذي نعلمه بالذات

فاذا تأملنا حالة الطفلة التى أعطيت مسألة حسابية بسيطة فكانت خاطئة نجدها حالة غير متعمدة فى نظر العلم والعقل السليم .
ولو أن المسألة الحسابية قدمت للطفلة الموهوبة بطريقة معينة تثير اهتمامها فانها بالتأكيد لن تكون خاطئة ، كما أن تصريف الأفعال يقدم عادة بطريقة جافة تعول على الحفظ وحده فانها لن تأتى بفائدة . إننا نعلم تصريف الأفعال عادة لنعلم اللغة .
وقد جاء فى تعبير أبى الطفلة الموهوبة : « لفظها بالعربية وبالفرنسية فى غاية الروعة » وإذا تحدثت باللغتين يكون الحديث صحيحا وتستعمل كلمات وجملا قوية رائعة ، أى أن الأفعال فى سياق الكلام تكون خاضعة للقواعد اللغوية وذلك لأنها مقرونة بفائدة التطبيق ، وأتساءل لماذا نلح إلحاحا شديداً لنزهق طفلة اتقنت الكلام والتعبير بحملها على اتقان الأجزاء التعبيرية لا لشىء إلا لكي تخضع للقانون التعليمى وفى استطاعتنا أن ننتظر سنا معينة لنعلمها تصريف الأفعال وغير ذلك من القواعد .

فلابد من أن نعتنى بالأطفال الموهوبين فنعاملهم معاملة خاصة ولانزج بهم وسط المجموعات المتعددة ،لابد أن نأخذ بيدهم برفق لنرشدهم إلى ما يهمهم وما ينفعهم . وكثيراً ما يضرب

الطفل الموهوب عن الدرس لأنه بسيط بالنسبة إليه ، وبذلك فانه يتعود الفرار بفكره باحثا عما هو ملائم لقدرته ، ولكن الإهمال يجعله يتعود التواكل وعدم التركيز ويضيع نشاطه هباء ولا يعرف كيف يسترجع قدرته على التركيز فى وقت الحاجة . وهكذا نخسر باسرافنا فى التعليم الجمعي عناصر ممتازة تفشل فى التعليم وتتجه بذكائها القوى إلي ميادين لتظهر فيها قوتها فى صورة نضال وكفاح . وكثيراً ما نجد هذه العناصر الطيبة تنقلب إلى جرائيم فاسدة تضر بالمجتمع وتكون طبقة المجرمين المتفوقين فى استعمال الحيلة والمكر والقوة .

إن المدارس النموذجية لفتح جديد فى هذا العصر ولكنها لاتكفى وحدها لتوجيه الطفل الموهوب الوجهة المضمونة ، وأرى أن العبء كله يقع على الأم وأتمسك بحرفية الجملة التى جاءت فى عرض أبى الطفلة الموهوبة « كانت تعرف كل هذا عندما كانت أمها تقوم بتعليمها فى الصيف » وياحبذا لو كانت الأمهات يعرفن قيمة مراقبة تعليم أطفالهن فان هذه المراقبة القائمة على فهم نفسية الطفل والمستندة إلى عاطفة تسامح وتلاطف وتستغل الميول لإثارة الاهتمام ،

تستطيع أن تخلق من كل طفل عادى طفلا موهوبا .

أيتها الأمهات إن كنتن تردن أن يقال عن أطفالكن إنهم موهوبون فلا يكون ذلك بالإطراء الكاذب والتمنيات الخيالية بل يكون بالفعل المتواصل والصبر الدائم والعناية المستمرة .

أيتها الأمهات ، أنتن المسئولات عن التعليم قبل المدرسة فى استطاعتكن أن تثرن الاهتمام ليستغل الطفل المعلومات التى يقدمها له المدرس . ونجاح الطفل فى المدرسة وفى الحياة متوقف على نجاح الأم فى خلق المواهب وتنميتها .

الطفـــل والديـن

إن مشكلة التربية الدينية تعتبر مشكلة البالغين ، ونرى فيها اختـــلاف الآراء والمشاعر فالبعض متعصب والبعض الآخر متسامح . ولكننا نلاحظ اتجاها عالميا نحو حرية الأديان كل يعبد ربه على طريقة مجتمعه، وكل يتمسك بدين آبائه . وأصبحنا فى الشرق العربى قادرين على اتقاء المناقشات الدينية فى المجتمعات العامة . هذا ما وصل اليه المجتمع وهى نتيجة تشجعنا على التعرض لموضوع الدين فى الأسرة المكونة من كبار ناضجين وصغار قاصرين عاجزين عن فهم بعض المعانى الدينية مثل الضمير والآخرة والحساب والعقاب وغير ذلك من الموضوعات ، ونحاول اليوم أن ندرس مشكلتين : مشكلة عامة تبحث فى موقف الطفـل من الدين عموما ، ومشكلة خاصة هى موقفنا من الطفـل المولود لأبوين مختلفين فى الديانات .

ولا أخفى ثورتى على جهلنا فى هذا الموضوع ، ولا أخفى حزنى على ما يترتب عن هذا الجهل من أخطاء فى التربيـة

إننا نشاهد بعض الآباء تحت تأثير عصبيتهم الدينية النـاشئة عن الصراع الاجتماعي يبدأون بتلقين الدين للأطفال منـذ المرحلة الأولى من الإدراك ، ويرى الأب أنه من الواجب تبليغ دينه إلى ابنه ، وبهذه الطريقة حشى أهلنا أدمغتنا منذ أول خطوة في إدراكنا تعاليم الدين ، حدثونا عن الإله وعن اليوم الآخر وعن الحساب والعقاب والنار ، ويبلغ لنا الدين بأكمله ونجد فيه الحديث عن السرقة والقتـل وغير ذلك من المنكرات والفواحش التي جاءت الأديان لمحاربتها .

ومع احترامي لكل الأديان — كمشاعر مال إليها الناس بغية الصلاح والاطمئنان النفسي — أرى أنه يكون من الأحسن اتباع خطة تتفق مع رغبات الدين والآباء وتتفق مع أصول التربية والمحافظة على سلامة نمو الشخصية . لنعلم أن استعمال التهديد لتوجيه الأطفال اتجاه ضـار ومنبع من منـابع الخوف المؤثر على السلوك . فليكن الدين موجهـا للفضائل عند الطفل لا مهدداً التهديد القوي الباعث للرعب للقضاء على النقاش . فلا يجوز أن نستعمل السلاح المهيأ لمحاربة أخطاء الكبار لتهديد أطفال لم يفكروا بعد في ذنب

من الذنوب ولنستعمل الميول الدينية لتشجيع الترابط الاجتماعى داخل الطائفة دون أن نوجه الطفل إلى التعصب وبغض الطوائف الأخرى . يجب بصفة عامة أن نبعد الطفل عن أى صراع دينى ، لأن التعصب يتعبه من غير فائدة بل يعرضه لانفعالات لا يقوى عليها . والكلام عن العقاب والحساب واليوم الآخر يعرض الطفل لتصور الموت والخوف منه بشدة تهز كيان الصغير ، وليس الطفل فى حاجة إلى هذا الخوف القوى ولا يجوز أيضا أن ندخل فى قلبه الصغير الحزن المنافى لمرح الطفولة . أرى أننا معشر البشر مخطئين نحو أطفالنا فى هذا الاتجاه ، وأعتقد أننا بهذا الخطأ نقلل أيضا من أثر الدين فى النفس لأن الطبيعة النفسية تقر أحيانا فى الطفولة من هذه التهديدات إلى الثورة أو التجلد ومواجهة الخطر وتخلق بهذا الخطأ التربوى شريرين تجني بهم على المجتمع كما تجني عليهم أيضا .

وأوجه ندائى إلى الأمهات راجيا مراعاة سن الطفل فيما نحدثه من أحاديث . ولنعلم أن كل صورة تدخل فى ذهن الطفل تترك أثراً ، ونفسه كلها تتجه إليها وسلوكه يستجيب لها

وكثيراً ماشاهدنا أطفالا يصحون من نومهم منزعجين معبرين عن خوف شديد بعد ما سمعــوه من تهديدات دينية . ونجد بعض الأشخاص يترددون فى أفعـالهم وسلوكهم تحت تأثير خوف مبهم ، وبعد التحليل نجــد خوفهم الشديد راجعا إلى تخويف الأمهات المتكرر فى الطفولة من البوليس ومن « ربنا » وغير ذلك من الوسائل الرادعة للطفل المستعملة بصورة مكبرة بدلا من اتباع وسائل أقل شدة للوصول إلى تهدئة تامة .

ولا يجوز قطعياً لمصلحة الطفل أن نحط أمامه من شأن الأديان الأخرى . إننى سمعت مراراً أشخاصا كبـارا يعبرون عن حيرتهم فى الطفولة من التناقض بين ما سمعه فى البيت وما يشاهده بنفسه فى زملائه المخالفين لدينــه ، « فى المنزل كنت أتصور اهل الملة الأخرى أناسا لا يوثق بهم ولا يستحقون الاحترام ، ولكنى فى المدرسة كنت أشعر بتقرب كبير من صديقى فلان وهو من دين غير دينى . وكانت هذه الحيرة تزعجنى وتحرمنى من الراحة ، وتأثرت من بعد وأنا كبير من هذا الايحاء وخسرت خسارات كبرى فى عمليات تجارية لأنى كنت أعيش تحت سيطرة الإيحاء المنزلى . »

وهذا الموضوع العـــام يذكرنا بموضوع خاص وهو موضوع الطفل المولود من أبوين مختلفين فى الديانة . وإن كان الطفل دائما يتبع — من الناحية النفسية — دين أمه إلا أنه يكون ميالا إلى أبيه بالنسبة للأديان الأخرى الخارجة عن ديني الأب والأم .

وهذا الميل يظل في بعض الأحيان مكبوتا ويحدث انقساما فى الشخصية لأن الطفـل يعيش موزعا خصوصاً إن هو تعرض لصراع بين الدينين فى البيئـــة المدرسية . فان هذا الصراع يعرضه إلى تطاحن داخلى مؤلم . وفى الغالب يكون مثل هؤلاء الأطفل غير مستقرين ولا يقدرون على تركيز طويل فى دراستهم . هذا إن فرضنا الـكمال فى الأبوين وامتناعهما بتاتا عن الخلاف فى اختيار الطفل لدينه . وفى مثل هذه المواقف تتدخل عوامل خارجة عن الدين إذ يحاول كل من الأبوين أن يوجه الابن لدينه ليستدل بذلك على تعلق هذا الابن به وتفضيله في الحب عن الطرف الآخر . وهـذا النزاع العاطفى الممتزج بنزاع ديني يفسد شعور الطفل ويعرضه للانطواء على نفسه وتنقلب الحيرة العاطفية إلى تردد مستمر ويؤدى به الأمر إلى الانفصال عن أهله وعن المجتمع .

ويبدو من الواجب احترام راحة الطفل وعدم التعرض

إلى إقحامه فى نزاعنا العاطفى وصراعنا الاجتماعي ، ويكون من الضرورى تجنب كل حديث يفوق إدراك الطفل ، فالأبحاث الدينية كما يعرضها بعض الآباء على أطفالهم تقرب من الأبحاث الفلسفية ولذلك لا تفهم أو تفهم بصورة مشوهة وتؤدى إلى مواقف من السلوك غريبة أو مضرة .

والخلاصة أن كثيراً من الآباء يخطئون خطئاً كبيراً فى استعمال الدين وفكرة الألوهية لتهديد أطفالهم وهذا الاتجاه ضار بالطفل لأنه يؤدى فى بعض الأحيان الى نتيجه عكسية وهو في الغالب يضر بالشخصية لأنه يعرض الطفل الي خوف مفزع يقلقه من أى فائدة . ويمكننا أن نهديء الطفل ونوجهه توجيهاً حكيماً ليقلع عن شذوذه باللين من غير عنف . ويستحسن إرجاء الأبحاث الدينية النظرية الى سن الشباب والبدء بالتوجيه الخفيف إن كان ولا بد من التوجيه . ويعتبر من الجناية الاجتماعية التعريض بالأديان الأخرى والحط من قيمتها ، فإن ذلك يعرض الطفل لصراع يضره فى سلوكه ونموه العقلى وعلاقاته الاجتماعية فى المدرسة والحياة .

وأما الأطفال المولودون من أبوين مختلفين فى الديانة فيجب احترام راحتهم بتوحيد توجيههم الديني وعدم إزعاجهم بالصراع العاطفي المتمثل فى صورة الصراع الديني .

الطفل الكبير

نلاحظ كلنا أن الأطفال يعبرون دائما عن رغبة اعتبارهم كبارا ، وبناء على ذلك يقبلون على تقليد مستمر لسلوك الكبار يقلد الصبيان مواقف الرجولة من حرب وتجارة وزراعة ، وأما البنات فيملن فى لعبهن إلى تقليد الحياة المنزلية وأعمالها من طهى ونظافة واستقبال الضيوف وتربية وتمريض وغير ذلك من أعمال المرأة . وأدت هذه الملاحظة برجسن الفيلسوف الفرنسى إلى القول بوجود فوارق جنسية فى نفس الأطفال تميز سلوك الصبيان عن سلوك البنات . واتفق الأولاد الذكور فى كل العصور وفى كل البلاد على ألعاب منتشرة بينهم ولو لم يشاهد بعضهم بعضاً ، ويمكن للطفل أن يهتدى إلى نوع من اللعب من تلقاء نفسه دون تقليده لطفل آخر . وهكذا نجد أطفالا ذكوراً كثيرين يستعملون عصا كفرس يركبونها ويقلدون حركات الجرى وحركات القفز بطريقة خيالية ومرونة جميلة ، وكذلك نجد كل البنات فى مختلف العصور والشعوب تقوم بألعاب تمثل تربية وتدليلها عروسة كأنها طفلة لها .

ونشاهد الأطفال يندمجون اندماجا كليا فى الشخصيات التي يرغبون تمثيلها ويكون فى بعض الأحيان تقليدا بعيداً فى الدقة يشتمل على كل مراحل الفصل ، ويلعب الخيال دوراً هاما فى تمثيل المكان . ويختار الطفل أشياء تكون فى متناول يده ليعطى لها وظيفة معينة فالحجرة تمثل الجبل والعصا تمثل الشجرة والكرسي يمثل المنزل . وهكذا يوجد الطفل مسرحا ملائما للمواقف التي يريد تمثيلها . ونشاهد أن كل طفل يرغب فى أن يكون محط الأنظار ويفرض بطولته ويكون هذا الشعور بالأنانية مصدر كل شجار بين الأطفال . ويحدث فى الغالب غدر وخروج عن الاتفاق لأن الطفل الذى اختار دورا ومنعوه أن يقوم بتمثيله يثور أثناء اللعب وينقلب المرح إلى غضب يؤدى إلى التصادم وإلى الهدم .

وكثيراً ما يتجه الأطفال إلى تقليد الكبار فى أنواع السلوك الخفى محاولين إثبات نجاحهم فى إدراك ما يريد الآباء إخفاءه . وهكذا فى الغالب نجد الأطفال من الجنسين أو من الجنس الواحد يمثلون حفلات الزواج ويصلون فى بعض الأحيان إلى أفعال جنسية خطيرة بالنسبة إلى التربية الخلقية وتتلاشى فكرة تقليد الزواج ليقف بعض الأطفال عند الأفعال الجنسية ويكون ذلك بداية اتجاه مبكر للفعل الجنسي الطبيعي

أو نقطة بداية لسلوك جنسى منحرف عندما يكون تمثيل الزواج بين الصبيان وحدهم أو بين البنات فيما بينهم . وأظهر لنا التحليل النفسي أن هذا النوع من اللعب يترك آثاراً هامة فى الاتجاه الجنسى خصوصا إن كان هذا النوع من اللعب قد استمر مدة طويلة من الزمن . ولهذا يحسن الا نغفل هذه الناحية فى التربية فالنصائح التى تنهى عن بعض أنواع السلوك لا تفيد لأننا فى أغلب الأحيان نثير الفكرة المجهولة لدى الطفل بتحذير سابق لأوانه . فبدلا من هذا النهي يحسن مراقبة اللعب والتدخل لتغيير بعض الأوضاع محاولين توجيه اللعب بجعله موافقا للطفولة ، وإبعاده عن الإسراف فى تقليد الكبار لأن ذلك قد يؤدى بهم إلى اتخاذ مواقف تفوق سنهم ويسترسلون فى خيالاتهم الى درجة تنفيذ أفعال خطيرة . وسمعنا عن الأطفال الذين مثلوا المحكمة فعينوا قاضيا ومحامين كمتهمين وحكم القاضي بالإعدام على المتهمين بعد سماع الدفاع والغريب أن التمثيل استمر إلى أبعد حد وشُنق طفلان شنقا حقيقياً ونشرت الجرائد البريطانية تفاصيل هذا الحادث الغريب الذى وقع فى ريف بريطانيا .

فيجب على كل أم أن تعلم أن طفلها يحارب فكرة الطفولة

ويريد أن يكون كبيرا وأن يعامل معاملة الكبار ، ويتطلب هذا الاتجاه حكمة الأم وألا تسرف فى احتقار طفلها والتعبير عن مكانته كطفل وتحرمه بصفـة صريحة من بعض المزايا التى يتمتع بها إخوته الكبار لأن ذلك يؤدى حتما إلى الإسراف فى تمثيل دور الكبير . ويندم الطفل بعد ذلك لأنه حرم من حرية الطفولة وخلوها من المسؤوليات ويحـاول بعد نضجه الرجوع إلى مواقف الطفولة .

وأثبت التحليل النفسي أن الأشخاص الذين حرموا فى طفولتهم من سلوك موافق لسنهم ينقلبون أطفالا فى كبرهم . وهكذا نعلل المواقف الطفلية التى يقفها بعض الكبار فيبدوا لنا سلوكهم غريبا بالنسبة لسنهم ، فهؤلاء لم يسلكوا كأطفال فى طفولتهم فيحدث عندهم فى بلوغهم اتجـاه تعويضي ويظهر هذا التعويض بشكل واضح عند الأطفال الذين أوجدتهم ظروفهم العائلية فى مواقف حملتهم مسؤليات جساما قبل نضجهم .

إذا وجد صبي وحده مع أمه بعد موت الأب أو بعد طلاق الأم وكان ملزما بمساعدة أمه على كسب القوت الضرورى فيعمل ويتعب بدلا من أن يلعب ويمرح ، فنشاهد فى الغالب عند هذا الشخص إتجاها جديا فى الحياة إلى أن يصل إلى سن الثـلاثين ، ثم ينقلب إلى اتجـاه طفـلى

واضح وبعض هؤلاء يشعرون بنوع غريب من الحسد إزاء أطفالهم أو الأطفال عموما ، وذلك لا يصدر عن قسوة بل عن إثارة عقدة حرمان تنغص على الشخص تمتعه بنضجه وتصور له ظلما طبيعيا تحمله في الطفولة وانفرد به دون غيره من الأطفال . وكلنا نبكى أيام الطفولة وما صاحبها من سعادة وحرية وتحاول الرجوع إليها لخلوها من كل مسئولية .

وليست وظيفة اللعب محصورة فى تكييف الطفل لسنه فقط ، بل هناك أهمية كبرى يمتاز بها اللعب لدى الأطفال ، فاللعب الملائم للطفولة يقوم بوظيفة تنمية الاستعدادات بتمرين السلوك . نشاهد الأطفال فى لعبهم يقومون بأفعال يعبرون عنها باللفظ فالطفلة تضع دميتها فى المهد وتقول : أنت تنامين هنا ، وتضع شيئاً آخر في مكان آخر قائلة : وأنت تبقي هنا ويقوم الطفل بالفعل معبراً عنه لأن السلوك الخارجى يبدأ ينعكس إلى سلوك ذهني فيمر بالمرحلة التعبيرية الصريحة ، وبعد النمو يصير التعبير ضمنياً فى النفس ليصبح تفكيراً مجردا . فاللعب يخلق التفكير لأنه يربط بين ترتيب الحركات لتصير أفعالا ويربط بين الكلمات لتصير جملاويربط بين الصور ليكون منها تفكيراً . والطفل الذى يعامل كرجل والطفلة التى تعامل

كامرأة يدرك كل منهما حقائق عالية بعدد قليل من الصور ويقومون بنوع ناقص من الربط . هذا النوع من التربية يعرض الشخص إلى القفز فى أفكاره ويصير إدراكه للجمل الدقيقة صعباً . ونلاحظ على هـــذا النوع من الأطفال عدم خضوع لمواقف التكيف الصعبة . هذا زيادة عن نتيجة التعب الذهني الذى تظهر آثاره فى هزال وضعف جسمى واضح وتنقلب حدة الفهم إلى ضياع وقتى وشدة وطأة أحلام اليقظة. وشاهدنا عند هذا النوع من الأشخاص أحلاماً ليلية تدور كلها حول الانطلاق والقفز والطيران وغير ذلك .

وحرمت بعض الأمهات طفلها من اللعب خوفا عليه من التعرض للبرد ومخالطة الأطفال المرضى وكانت تشغله بالمفيد من أعمال الدرس وتكثر من قص القصص المصورة لمواقف الحياة العامة فأدى به، ذلك فى كبره إلى الشعور بفراغ وكان دائما يحلم أنه فقد شيئا كما أنه كان يتصور نفسه طائراً يريد الارتكاز على الأرض فلا يستطيع وكانت حركته صـــعبة لا يتقن التكيف الملائم للمواقف الجديدة ، فكان حرمانه من اللعب فى الطفولة منبع شعور بالحرمان أدى إلى شعور بعدم الاكتفاء ومحاولة إيجاد شيء مفقود .

ونجـد بعض الآباء الذين يريدون الاتقـان فى التربيـة يسرفون فى بث الشجاعة فى نفوس أطفالهم ويدفعونهم إلى مواجهة المواقف المخيفة مع ذكر إيحاء بالرجولة . ويحدث أن الطفل يشعر بالخوف الشديد فى قيامه بالمهمة الصعبة المطلوبة منه ولكنه يكبت خوفه على حساب أعصابه وبدلا من أن يتعود الطفــل على الشجاعة فإنه يكبت انفعــاله فى اللاشعور ليظهر فيا بعـد فى صـورة خوف مبهم .

يشعر الشخص بالخوف دون أن يعرف له سببا مباشراً ويجعله هذا الخوف المبهم يشعر بنقص حقيقي يضعف من رجولته وأحيانا يحاول الشخص أن يقضى على هذا الخوف المبهم بالاقبال على المواقف الصعبة الخطيرة فيواجه الخطر بنوع من اللامبالاة الجنونية . وهـذا الصنف من السـلوك نشاهده فى الأشخاص الذين يقومون بسباق السيارات الرياضية فى مناطق يكثر فيها الانحراف والانزلاق وغير ذلك من مواقف التهور . ولكن التحليل النفسي أثبت أن هذا النوع من السلوك لا يقضى على الخوف المكبوت منذ الطفولة ولا بد من إجراء تحليل نفسي منظم لإرجاع الأمور إلى مجراها الطبيعى . فلا بد من إعادة تصـور المواقف المخيفـة التى تعرض لهـا الشخص فى

طفولته ليدرك الشعور الذى كان يجب أن يشعر به ليتخلص من الخوف المكبوت .

والخلاصة أن الطفل يجب أن يعيش طفلا ، ويجب أن تراقب ألعابه حتي لا تؤدى به إلى تقليد الكبار بشكل زائد عن الحد . وذلك يساعد الطفل على تنمية ملكات التعبير والسلوك الحركي والتكيف العام ، وجعل الطفل يعيش فى جو طفلي يضمن سلامة الشخصية بنمو طبيعي لتتكامل وتنمو وتتصل إلى نضج ثابت كامل .



الطفل العنيد

إن أغلب الأمهات يجدن صعوبة كبيرة فى إخضاع أطفالهن للقيام بفعل معين ، ونلاحظ مراراً معركة حقيقية بين الأم والطفل فهى تريد شيئا وهـــو يريد شيئا آخر ، وتتوتر الأعصاب ويظهر الانفعال وتبدأ المعركة بالأفعال التهديدية . وتتكرر هذه المواقف إلى حد أنها تثير أعصاب الحاضرين وتؤدى إلى النفور من هذا الجو . وأشير هنا إلى موقف الأب الذى يشاهد هذه المعركة ويحاول التدخل فيتعقد الموقف لأنه لابد من أن يحدث تحيز إلى ناحية من طرفى النزاع فتراه أحيانا يؤيد الأم وأحيانا يناصر الطفل . وتكرر هذه الأزمات يترك حتما أثراً فى خلق الطفل وتكوين شخصيته كما أنها تؤثر أثراً مؤكداً فى العلاقة العاطفية بين الطفل وأهله .

ولا نكون مبالغين إذا أثبتنا أيضاً أن هذا التوتر قد يؤدى إلى فساد عاطفى بين الزوجين لأن التوتر الناشىء عن الخلاف فى معاملة الطفل يتحول إلى خلاف فى أمور أخرى بين الزوجين . ولهذا أعتبر موضوع عناد الطفل موضوعا هاما ، قد يؤثر فى

سعادة الأسرة كلها بتأثيره المباشر في العلاقة الزوجية ويطول البحث في مشكلة الزوجين حول موقفهما من الطفل : هل يجب اتفاقهما في «التأديب» أو اختلافهما لتخفيف الوطأة على الطفل

يجب بدلا من ذلك كله أن نزيل أساس المشكلة وهو عناد الطفل ، لأن الاتفاق في « التأديب » يعطي للطفل شعور الحرمان من العطف ويترك في نفسه بذرة الشعور بالاضطهاد ، وموقف الاختلاف يجعل الطفل يميل إلى من يؤيده ويربى شعورا عدائيا ضد من يتجه إلى قسوة التأديب . كما أن التغيير المستمر والخلط بين القسوة واللين يعطى الطفل شعوراً عاطفيا مضطربا ، ويتولد في نفسه ميل إلى عدم الثبات وينتهي الأمر إلى الحذر وعدم الثقة .

وهنا نتوقع صرخة الأمهات حائرات معبرات عن ثورة ضد اتجاهنا في « تعقيد » التربية . ولقد تعودنا سماع هذه التعبيرات الثائرة ، ولكنها لا تستطيع تغيير الحقائق العلمية ولا تستطيع تكذيب المشاهدات اليومية التي يقدمها لنا التحليل النفسى . ونقول للأمهات اللاتي يجدن في اتجاهنا تعقيداً أن هذا الطريق يقضى على الاتجاه المعقد ، ويؤدى إلى تكوين طفل سليم النفس سهل القيادة .

ولكي نضمن هدم الطريقة الفاسدة فى التربية وبقاء الطريقة الصحيحة ، يجب أن نذكر حقيقة واضحة فى معاملة الطفل . وهذه الحقيقة تقول لنا : إن الطفل لا يريد . وإنما يندفع . وعندما أتحدث عن الطفل أشير إلى ما دون العاشرة تقريباً فانه يكون دائماً مقاوما إما بالحاجات البيولوجية وإما متأثراً بالمواقف الخارجية التى توحي له بأعمال معينة . ولكى يضمن سلامة السلوك وعدم التعرض إلى فرض إرادتنا عليه وإثارة عنده وثورته وما يتبعها من انفعالات يجب أن نراقب دوافع الفعل . وهنا نحتاج إلى التزود من معلومات نفسية فى الفعل الإرادى . ويجب على الأم أن تترك الفعل فى حد ذاته لتراقب أسبابه . مثلا طفل لا يريد الأكل والأم تخاف على صحته فتندفع بحماس تفرض عليه أكلا معيناً ، والطفل يرفض ، والأم تحتد وتهدد أو تنفذ التهديد ، ويدخل الطفل فى طور جديد ولا يأكل ليعاقبها ويلجأ إلى الامتناع عن الأكل كوسيلة لتحقيق مطالبه إن رفضت مطالبه ، وتتعقد المسألة .

وأما الطريقة السليمة فانها تبتعد عن كل هذا ، وتتساءل الأم الحكيمة فى أول مرة امتنع فيها الطفل عن الأكل عن سبب الامتناع وتراقب بعد ذلك مباشرة برازه ، ويكون فى

الغالب غير طبيعي : إما أن الكمية من البراز تكون ضئيلة وبدأ الطفل يتعرض إلى إمساك وإما أن الرائحة تنبيء عن تأخر الفضلات فى الطرد وأن هناك عسر هضم ناشيء عن برد أو عن تعب أو انفعال. فبدلا من أن تقاوم الأم إرادة الطفل التى لم تنضج بعد ، فيجب أن تلجأ إلى طبيب العائلة أو تسعف إبنها بما يقضى على الإمساك لتشاهد الطفل يطلب الطعام تحت ضغط الجوع كما تقضى به حالة الطبيعة الحيوانية .

وهناك معارك أخرى تنشأ عن تنظيف الطفل ، إذ يرفض بعض الأطفال الاستحمام وتتعرض الأم إلى صراع عنيف ، وكثيراً ما تتم العملية فى جو مزعج وضجيج يصل صداه إلى أسماع الجيران . والطبيعة تثبت أن عملية الاستحمام محببة لأنها تحدث راحة والشعور بالماء شعور لذيذ . وطريقة الضغط هذه تكره الطفل الحمام والنظافة ، ويبقى هذا النفور إلى سن الكبر . ونشاهد الغرائب في سلوك بعض الناس البالغين الذين لا يكترثون بنظافتهم بحجة كاذبة أن ليس لديهم وقت للاستحمام والواقع أن هناك عقدة ناشئة من الطفولة ، لأن الأم كانت مهملة فى البحث عن الوسائل التي تجعل طفلها

ينفر من الحمام . وهذه الوسائل بسيطة لاتتطلب بحثا عويصا لأن أغلب الأمهات لا يعرفن تكييف الماء بالنسبة للجسم فاما الماء حار يؤذى الجسم وإما هو بارد يصدم الأعصاب . فى كلتا الحالتين يشعر الطفل بصعوبة التعرض إلى هذه المشاعر المقلقة لراحته . وكثيراً ما يحاول الطفل أن يفر من هذا الجو الحار المؤذى أو البارد المقلق فتحتد الأم وتلجأ إلى السرعة وتضغط فى الحك ، وهذه العملية تؤذى الطفل طبعا وتزيد من أسباب النفور .

ولا ننسي أيضا حالة نفسية الأم التى تقوم بتحميم أربعة أطفال مثلا وتكون مضطرة إلى القيام بهذه العملية الشاقة في يوم واحد وفي وقت واحد لكى لا تضطر إلى تسخين الماء مرات عديدة في الأسبوع — لا يفوتنا أن هذا الموقف يعطي بعض العذر للأم ، ولكنها لو اتبعت طريقة اللين وتكييف حرارة الماء وتبدأ بغسل الأطراف مثل اليدين أو الرجلين إلى أن يطمئن الطفل لدرجة الحرارة فان عملية الاستحمام تكون سهلة . ويمكن للطفل أن يطلبها من نفسه . وفي سن الرابعة يمكنه أن يغسل نفسه بنفسه وتستريح الأم من الكبير لتقوم بتحميم الصغير فى جو مريح لها ولطفلها .

وتصعب المواقف في العناد بين الطفل وأهله وتكون الأزمة حول عملية النوم . إننا نهمل الطفل إهمالا تاما في السنوات الأولى ولا نخضعه لأوقات معينة ، ويأتى يوم نريد فجأة من الطفل أن ينام لنتخلص منه لأى غرض من الأغراض ، ويشاهد الطفل استعدادات خاصة ويفهم أن ضيوفا سيحضرون ويأكلون ويسهرون ، وفي هذا اليوم يفاجأ الطفل بطلب شاق يأمره بالنوم ، فالطفل يرفض وتحت الضغط يثور .

وفى ظروف أخرى شاهدت أطفالا يرفضون النوم لأنهم يرغبون فى مجالسة الأب الذى كان غائباً طول اليوم خارج المنزل ، ولكن الأم تحت نفس الرغبة تريد التخلص من أطفالها ، وتحدث معركة تؤثر فى أعصاب الجميع وأعصاب الاطفال بطريقة أوضح وأخطر ، ويكون النوم قلقا ويتعود الطفل هذا القلق الأمر الذى يؤدى به إلى كره النوم .

وهناك أمهات يطلبن من أطفالهن النوم بعـــد الأكل مباشرة ويكون الاكل دسما بدافع فكرة التقوية وضمان الصحة الجيدة !! . فيصاب الطفل بعسر الهضم ويتعرض إلى أحلام مزعجة تربى الخوف في نفسه وتجعله يكره النوم ، ويقترن

النوم بالصور المخيفة التي تحدث عن سوء الهضم وتصبح عملية النوم شاقة ويضطر الطفل إلى طلب أمه مرات عديدة بالليل ويؤدى ذلك إلى احتجاج من طرفها لايفهمه الطفل . وتكتفي بعض الأمهات بلوم الطفل من الخوف .

والخلاصة أنه لايجوز لنا أن نفرض وجود ارادة قوية عند الأطفال تدفعهم إلى العند والعصيان ، ولابد فى بادىء الأمر من البحث عن أسباب الفعل وعن دوافع امتناعه . وبذلك يمكننا أن نتفادى مواقف العصيان وما ينشأ عنها من حدة انفعالية لدى الطرفين . ويجب على الأم أن تزود نفسها بمعلومات عن مبادىء الصحـــة لتفهم بنفسها أسباب العصيان وإلا سارعت إلى أقرب طبيب ليرجع الأمور إلى ظروفها الطبيعية بدلا من التعرض إلى أخطار الثورة .

ثورة الطفل

يجب على كل أم أن تفرق بين موقفين في بكاء الطفل : موقف الضيق الناشيء عن التعب أو الاضطراب ، وموقف الثورة الناشيء عن ضغط القيود وشدة الكبت . كل طفل ميال ـ بصحته الجيدة ـ إلى تصريف الطاقة الزائدة فى صورة حركات اللعب، ويعتبر اللعب بالنسبة للطفل ضرورة أساسية تساعد النمو الجسمى والنفسى ووسيلة نافعة تحقق التكيف الاجتماعى . وتصادف بعض الأمهات ظروفاً تقضى بجعل الطفل في حالة تحرمه من اللعب لأن الأم تكون فى حاجة إلى الوقت ولا يمكنها أن تترك الطفل يقوم برياضته اليومية فى صورة اللعب .

وأثبت التحليل النفسى أن كثيرين من البالغين تعرضوا فى حياتهم كلها إلى اضطرابات خطيرة فى السلوك يرجع سببها إلى كبت الحركة فى الطفولة والحرمان من حرية اللعب . وكثيراً ما يكون سبب هذا الحرمان راجعاً إلى خوف الأم الشديد على ابنها . ويكون الخوف دائماً من البرد ، وحتى

لا يصاب الطفل بالبرد تلفه أمه فى ثياب عديدة ثقيلة تقيد حركاته وتخنقها ويكون هذا الاتجاه فى معاملة الطفل ضاراً به جسمياً لأنه يفقده اكتساب المناعة ضد التغيرات الجوية ، ويكون ضاراً ضرراً اكبر من الناحية النفسية لأن الطفل يشعر بقيود ثقيلة تمنع حركته فى الوقت الذى تكون فيه أعصابه كلها تدعو إلى أفعال حرة ليستمر النمو بطريقة طبيعية وهذا التعارض بين الميول الداخلية نحو الحركة وبين القيود الخارجية يجعل الطفل يثور ويتعرض إلى أزمات عصبية يعبر عنها بالبكاء المتواصل . وأغلب هذه الأزمات تكون مصحوبة باضطراب فى الدورة الدموية لأن الطفل يكون فى حالة توتر شديد تجعل الدورة الدموية تشتد أو تميل إلى التباطوء ،ولذلك يحمر وجهه ثم يزرق . وأحياناً نلاحظ أن التنفس يصاب بتوقف . وفى هذه اللحظة تتدخل الأم مرددة بعض الصلوات والدعوات الدينية لتفك بها الأزمة وتقضى بطريقتها على الاضطراب

ويجب أن تعلم الأمهات أن هذه الثورات قد تكون خطيرة تهدد الحياة ، وأن كل ثورة تترك أثراً فى الأعصاب خصوصاً الجهاز العصبي الداخلي المشرف على الهضم والتنفس.

ولهذا السبب يصاب الطفل بامساك عصبى أو إسهال متواصل يضعفه . ويحتاج الطفل بعد كل ثورة إلى حمام دافىء يرجع أعصابه إلى الهدوء .ولا بد من البحث عن سبب الثورة وتلافيه حتى لا يتعرض الطفل إلى ثورة أخرى .

وأسلم طريقة لتربية الطفل هى محاولة القضاء على الثورات التى تؤذى الجهاز العصبى وترهف الحواس وتجعل نوم الطفل خفيفاً ، وذلك لأن الطاقة المكبوتة تحتاج إلى تصريف ، فان تعذر التصريف الطبيعى عن طريق اللعب فانه يتم بطريق الصدمة والانفجار لأقل منبه .ومن هنا نلاحظ فرقا كبيراً فى مواقف الأطفال فان البعض يبكي أقل من البعض الآخر تحت تأثير الجوع أو التعب . فالطفل يحتاج إلى مساعدة مستمرة للقيام بالحركات الضرورية بالنسبة لقوته فى سنه . فالطفل يبكي عندما يهمل فهو يطلب الاهتمام عن طريق البكاء لا لكي نجلس بجواره وننظر إليه. إنما هو ينادى أمه لتساعده على التحرك، فلابد من أن نفهم هذه الحقيقة . وأغلب الأشخاص المهتمين بتربية الحيوانات مثل الكلاب يلاحظون على الحيوان نوعا من الثورة إذا طال مكوثه فى مكان واحد ، فهو يلح فى طلب الحركة لأن الكائن الحى يحتاج إلى الشعور بالانطلاق ليوسع مجاله الحيوى .

وعند ما يكون الطفل فى السنة الثانية ويبدأ التنقل يميل إلي استعمال يديه ويحاول مسك كل الأشياء التى توجد فى متناول يديه . وتترك بعض الأمهات أشياء صغيرة قابلة للكسر فى متناول يد الطفل وهو في سن الثالثة وتأمره بعدم مسك هذه الأشياء ، ولكن الطفل يشعر بالميل الداخلي الذى يدفعه إلي القيام بالأفعال التى توحي له بها الأشياء الموجودة حوله . وهكذا نعرض الطفل إلىنوع من الصراع بين الميول الداخلية وبين الأوامر الصادرة من الأم وتكون مصحوبة بالتهديد. وكثيراً ما نشاهد طفلا يتجه إلي القيام بفعل قد يؤدى إلى كسر إناء نفيس فتصرخ الأم من بعيد وتجرى منفعلة لتعوق الفعل . فهذا الموقف يزعج الطفل ، لأنه وهو مقدم على فعله لا يكون متوقعا هذه الثورة من الأم . وشاهدت مرة طفلا وجد نفسه في موقف مشابه ، إذ هم بسحب كوب فصرخت أمه من بعيد لتمنعه ، فامتنع عن الفعل وظلت يداه متصلبتين لحظة ثم بكى ، فأشرت على الأم أن تهىء الجو للطفل فى المنزل أو تتركه فى غرفته التى تحتوى على لعبه وتترك له حرية القيام بالأفعال التى تمليها عليه ميوله .

وأغلب أطفالنا يتعرضون إلى صدمات انفعالية لا فائدة

منها ، كثيراً ما تحدث بتكرارها آثاراً نفسية سيئة وتعرض الطفل الى كبت يؤدى في يوم من الايام الى ثورات عصبية عنيفـة .

وعرفت عن طريق التحليل النفسي قصة فتاة كان أهلها في الطفولة يمنعونها عن اللعب ويتركونها وحدها منعزلة عن الأطفال الآخرين لأنهم لم يكونوا من طبقتها الاجتماعيـة فتكون فى نفس هذه الطفلة شعور بالحرمان وترببت بذور الثورة في نفسها وأدى بها ذلك — من بعد — الى انطلاق زائد عن الحد واتجهت الى سلوك شاذ لتعوض الحرمان الذى تعرضت له فى طفولتها .

ويبدو لبعض الناس أن العلاقة بين الشعور بالحرمان في الطفولة وبين الانطلاق أمر غريب ولكن الملاحظات العلمية تثبت هذه العلاقة ، كما أن الشعور بالخجل الذى نصادفه عند الـكثيرين بشكل مَرَضي قد يكون راجعا الى الإسراف فى منع الطفل عن الاختلاط فيتكون فى ذهنه اتجاه الى أنه أنقص من غـيره . وما علينـا الا أن نحاول الرجوع بذاكرتنا الى الطفولة لندرك ما يعانيه الأشخاص الذين عاشوا باستمرار فيما تعرضنا له من حرمان في لحظات قصيرة .

وظاهرة التردد المسيطرة على بعض الناس تكون ناتجة عن الخوف الذى أوحى به الآباء منذ الصغر. إن سياسة المنع أسوأ سياسة بالنسبة للطفل لأنها تؤدى إما الى ثورات تهز الأعصاب أو الى كبت يقضي على الإرادة. ونشاهد أن الأشخاص المصابين بالتردد يتعرضون الي ثورات عنيفة ويسلكون في بعض الأحيان سلوكاً يشبه سلوك الأطفال.

ويكون الصراع النفسي بين الميول الفردية والقيود المفروضة من الأهل سببا لضياع نشاط نفسى هام. وأغلب الأطفال الذين تعرضوا لكبت وحرمان مفروض من أحد الأبوين وتمتعوا بدلال من الطرف الآخر يشعرون بنوع من الانفصال النفسى عن الذى اتبع سياسة الضغط. ويؤدى هذا الانفصال فيما بعد الي ثورة ضده. وتظهر هذه الثورة فى صورة سلوك تعويضي.

ونذكر حالة شاب تعرض في طفولته الى حرمان من الوالد الذى كان يمتنع عن تقديم الهدايا المالية فى الوقت الذى كانت فيه الأم تغدق عليه باسراف. فكان هذا التعارض فى موقف الوالدين منبها للطفل الي الشعور بالحرمان من جراء موقف الأب نحوه، واتجه الى السرقة من الأب، وبعد

كبره صار يحب المال حبا فيه كثير من الإسراف الذى يقود الى العذاب . ثم انتقل هذا السلوك التعويضي الى الميادين الأخرى وصار الشاب لا يشعر بالاكتفاء فى طلب اللذات وتشتت سلوكه وأتعبه طموحه فى طلب حب المرأة وطلب العلم وطلب الجاه وغير ذلك من اللذات . ثم انقلبت الحالة النفسية الى شعور بالضيق والارتباك في السلوك والتفكير واضطر إلى الخضوع لعلاج نفسى .

والخلاصة أن الكبت فى مختلف صوره مضر للطفل فلا بد من الاجتهاد بطريقة حكيمة للابتعاد عن تعريض الطفل الى المواقف المحرجة التى تجعله فى صراع بين ميول داخلية قوية وأوامر صارمة تدفع الطفل حتما الى الثورات النفسية الضارة أو الكبت المؤذى .



تخويف الطفل

تحار بعض الأمهات في معاملة أطفالهن عندما يقبلون على البكاء بطريقة مستمرة ، وكثيراً ما تلجأ بعضهن إلى طريقة التخويف سواء باستعمال الأصوات المزعجة أو باظهار صور قبيحة المنظر مثيرة للرعب ، ويحدث أن الطفل يسكت ويكف عن البكاء في تلك اللحظة ليقبل على البكاء في وقت آخر بدافع الخوف من الصور والأصوات المزعجة التي تعود بسهولة تخيلها عن طريق الترابط .

وبطريقة التخويف نسكت الطفل ، ولكننا نسكته بصدمة تترك أثراً أخطر من انفعال الغضب . وفي الغالب تختار الأم طرقا مخيفة بدرجة لاتوافق قوة أعصاب الطفل فيتعرض الي اضطرابات عصبية ونفسية ، وفي دراسات التحليل النفسي وجدنا أن الخوف اكثر الانفعالات انتشاراً وسيطرة على النفوس ، وذلك راجع أولا إلى انفعال الخوف الطبيعي الذي يحمي الحياة ويحافظ عليها من الأخطار الطبيعية وباستعمال الخوف في التربية نقوى الخوف ونجعله يسيطر على

الانفعالات الأخرى طول الحيـاة . فالطفل ضعيف البنيـة وأعصابه غير مترابطة ويكون في حالة سلبية تجعله يستجيب بانفعال شبيه بانفعال الخوف حتى إذا كان الصوت أو الحركة غير مضر فانه يستجيب بحركة انكماش يدافع بها عن نفسه . فكل تهـديد صوتي أو حركي يأتي من الأهل يعرض الطفل إلى هذا الانكماش الذي يترك أثراً واضحاً في التركيب وفي الوظائف الفسيولوجية .

ويجب أن نذكر أن الطفل متعلق بطبيعة حالته الغذائية بأمه . وهو يلجأ اليها فاراً من الجوع ، فعندما تقوم الأم بعملية التهديد والتخويف فانه يفر منها اليها ، وهذا الموقف الشاذ من الأم يوقع الطفل في حيرة وبلبلة تؤثر على وحدة شخصيته فيما بعد . والطفل لا يميز جيداً بين المواقف المعقدة التي تقفها الأم : إذ تخفي حبها مرة وتظهره مرة أخرى ، تغذيه وتضربه في نفس الوقت . فلنتصور حالتنا نحن مع شخص يعطينا ما نريده ويغدق علينا النعم ثم ينقلب فجأة مهدداً مخيفاً ونحن نتألم أشد الألم عندما يأتينا التهديد من شخص ائتمناه على أنفسنا وسلمنا أمرنا اليـه وعولنا عليه كل التعويل في الحياة .

وأذكر بهذه المناسبة حالة شاب أصيب بتردد خطير في كل أعماله وكان دائماً يقف موقف الحائر لايستطيع إنجاز أى عمل رغم قدرته التامة على القيام بالعمل المطلوب، وضاقت الدنيا فى وجه هذا الشاب ولم يجد أى حل لمشكلته التى عرضته آخر الأمر إلى أزمات نفسية شديدة وبعد التحليل الدقيق وجدنا أن أمه كانت عصبية ولم تكن قادرة على تربية طفل وكانت عصبيتها فى بعض الأحيان تدفعها إلى إيذائه، فصار يخافها وفى نفس الوقت كانت تعامله كأم فيما يتصل بالغذاء والنظافة والعلاج، فكان الطفل يشعر بموقفين متناقضين تمام التناقض بالنسبة اليه. وهذا التناقض يحدث اتجاهين فى النشاط وهذا هو السبب الأصلى للازدواج الذى نلاحظه فى أغلب الناس وتضارب الميول المتناقضة نحو الخير ونحو الشر. هذا الازدواج يضعف الطاقة النفسية في الميدان الذهنى ويحدث السرحان والذهول والضعف فى التركيز، فأغلب الأطفال الذين كانوا ضحية هذا التضارب فى المعاملة يكونون ضعافاً فى قدراتهم على التحصيل. ويحاول الآباء أن يضغطوا على الطفل ويستعملون فى نفس الوقت طرق التهديد التى كانت

سبب الداء وهكذا يقع أغلبنا فى موقف مضحك ، يحاربون داء بشكل يسبب الداء نفسه بدلا من أن يسعوا سعياً جدياً فى القضاء على الازدواج النفسى والتشتت الذهنى وما ينتج عنهما من ضعف فى التركيز وضياع فى الذاكرة . وفى مثل هذه الحالات يجب فوراً على الآباء ان يوحدوا اتجاهاتهم نحو أولادهم فاما شدة وإما لين ، واللين أفيد لأنه يمكن الطفل من تجنب الانفعال ويعطيه فرصة الهدوء الذى يساعد الأعصاب على الترابط ، ولعلم ألا إرادة بدون قدرة على ضبط الأعصاب .

وعلى هذا الأساس يمكن للأمهات أن يعلمن أنه بدلا من البناء يتعرض الطفل إلى هدم الطبيعة إن هن استعملن التخويف والتهديد . فزيادة على خطر الازدواج فى الشخصية يمكن للخوف أن يكمن في نفس الطفل ويتربى معه مختفياً في اللاشعور ويحاول بعد ذلك أن يظهر فى صورة مبهمة وبعد عدة مرات يتعرض فيها الشخص إلى هذا الشعور الغريب من الخوف المبهم فانه يخاف على قواه العقلية ويحاول مجتهداً أن يجد له سببا ، وفي الغالب يتوهم الشخص أى سبب يمكنه

أن يخيف ليجيب عن سؤاله الداخلى : مم أنا خائف؟ ويكون الجواب دائماً بالاتجاه نحو الخوف من الموت . ويتجلى هـذا الخوف ويسيطر سيطرة قوية لدرجة أنه يصل إلى الرعب . ثم تتعقد الحالة إذ يصـــل الشخص إلى الخوف من الخوف والخوف من الأمراض المختلفة مهما كانت غريبـــة وبعيدة الاحتمال .

والضرر الأكبر لهذا الخوف الناتج عن سوء التربية يتلخص فى التعارض الذى يحدث بين العقل وبين الشعور بالخوف ، لأن الشعور بالخوف واضح والعقل يحاول أن يبرر هـذا الشعور فينحرف قليلا عن الأصول المنطقية ويسـير فى تيار الشعور . وبناء على هذا الخضوع يسلك الشخص سلوكا معينا أى أن الأفعال بدورها تتأثر بحالة الخوف ويتجه الشخص اتجاهات معينـــة ليقضي على خوفه : فانه يذهب للأطباء ليقنعهم أن قلبه مريض وأن جسمه معرض لكل الأخطار ويلح فى طلب الانقاذ .

وفى حالة ما يرفض العقل أن يخضع للشعور بالخوف ولا يوافق على التبريرات المخـترعة لتعـــليل الشعور بالخوف

المكبوت منــذ الطفولة فان الشخص يتعرض لأعنف الآلام في صورة صداع وتوتر في الجسم كله وتقلصات فى المعــدة والأمعاء ويسيطر الإمساك بصفة خاصة، كما أن العقل يصاب بخمول من تأثير رغبة الهروب من مشكلة الشعور بالخوف ومن تأثير التخدير الناشيء عن تعفن الأكل فى الأمعاء القابضة . وقد تشتد الحالة ويحدث تقلص فى الأعصاب المعصرة ويتعطل البول وهنا يشتد الخطر على الحياة . كل هذا وأكثر من الاضطرابات النفسية والجسمية والاجتماعية ينشأ عن تخويف الأطفال فى الوقت الذى يمكننا فيــه أن نستبدل بهــذه الاضطربات الخطيرة نظاما بديعا فى السلوك وهدوءاً تاما فى الأعصاب لو عاملنا الطفل كطفل وتحملنا نزواته وحاولنا توجيهه نحو الهدوء والاطمئنان بالحيلة اللطيفة تاركين تماما الضغط القاسي والإخضاع السريع بسلاح الخوف المميت .



شدة الحساسية لدى الطفـــل

نلاحظ فى أغلب الأحيان فرقا كبيرا فى الحساسية بين الناس عموما وبين الأطفال خصوصا . وهذا الفرق راجع إلى عوامل كثيرة تبدأ بالتأكيد في أيام الحمل الأولى . نشاهد أمهـــات يتعرضن لاضطرابات نفسية عديدة أيام الحمل ، واستقرار الاضطراب النفسي يؤثر حتما فى الحالة الجسمية عموما والحالة العصبية خصوصا . وبناء على هذه الآثار الجسمية العصبية يحدث تكوين خاص فى الجهاز العصبي لدى الطفل وهو فى مرحلة الجنين . والحامل بطبيعة حالتها تكون فى حالة عصبية غير مستقرة . فاذا صادفت ظروفا غير مستقرة فانها تضاعف اضطرابها وتجعلها تقع فى سلوك جسمي ونفسي شاذ . وإذا ربطنا هذه الحالة باتجاه بعض السيدات في عصرنا هذا الذى يحبذ التخلص من الحمل فى كثير من الأحيان فاننا نشاهد الحامل تتعرض إلى ثورة ضد حالتها كحامل . وكثيراً ما يكون الحمل غير متوقع وتمر أشهر قبل اكتشاف الحمل وتعيش الأم فى حالة من القلق وعدم الاستقرار وتتدخل

العوامل الدينية فى كثير من الأحيان لتمنع الأم من القيام بعملية الإجهاض . وهناك أيضا الشعور بالأنانية الذى يدفع الأم إلى التخلص من حملها حتى لا تتعرض لمتاعب التربية التى تحرمها من الراحة والحرية ويكلفها مصروفات . كل هذه الاتجاهات الفكرية أصبحت قوية فى عصرنا هذا وتعرض الأم الحامل لصراع نفسي شديد يرفع من درجة التوتر ويزيد فى اضطرابات الحمل ، ويتعرض الجنين إلى حالة تجعله حساسا فيما بعد وتبدو عليه علامات شدة الحساسية فى الأيام الأولى بعد الولادة .

وفى مثل هذه الحالة يكون من الصعب تغيير حالة الوليد بطريقة سهلة لأنه يكون فى مرحلة صدمة التكيف مع البيئة الطبيعية وتقلباتها الجوية بعد ما كان محمياً منها فى بطن أمه . ولهذا يحسن أن نعتني بموضوع حساسية الطفل من الأيام الأولى بعد ظهور علامات الحمل بحيث أننا نضمن للأم الحامل جوا نفسيا هادئا .

وقد بدأنا نرعى الحامل من الناحية الجسمية ببعض المواد الكيمائية مثل الكالسيوم وغيره ، ولكننا لم نتجه بعد إلى رعاية الحامل من الناحية النفسية ، مع أنها تكون في حالة

مضطربة ، وكثيرا ما تظهر عليها أوهام ومخاوف تثير انفعالاتها وكثيرا ما تتعرض إلى أزمات بكاء أو غيرها من المواقف النفسية الشاذة . ولا ننسى الخوف الشديد من الوضع سواء كان أول وضع أو كان لاحقاً غيره . ففي أول وضع تكون الحامل متخوفة لأنها مقبلة على عملية سمعت عنها أو شاهدتها عند الأخريات وتكون خائفة من آلام لا عهد لها بها . وإذا كانت الحامل قد وضعت من قبل بآلام شديدة فانها تكون أيضا متخوفة من الوضع كما أنها تكون خائفة على وليدها .

وبهذا نثبت أن الحامل تكون بصفة دائمة فريسة لانفعالات حقيقية ووهمية . وبدلا من أن تسرى هذه الاضطرابات إلى أعصاب الحامل وبالتالى إلى أعصاب الجنين يحسن توجيه الحامل توجيها نفسيا يخفف عنها ضغط التقلبات لانفعالية . وأنصح فى مثل هذه الحالات بأن تقبل الحامل على الاسترخاء الكلي للجسم أى تمتد فى وضع مريح وترخى كل عضلاتها وتتخذ وضعا لا يتطلب منها أى مجهود وتقوم ى نفس الوقت بعمليات التنفس العميق مع السكوت الوجيز مد كل عملية تنفس ، ويجب أيضا أن تراعى الأم الحامل

انطلاق ملامح وجهها وخصوصا عضلات العين والخدين ، ويكون ذلك بابتسامة خفيفة . وتكرار هذه الجلسات يضمن راحة الأعصاب وتجديد ترابطها وإبعاد التقلصات الناشئة عن الانفعال وتقلب الحالات النفسية .

وبعد الوضع يمكننا أن نقضي على زيادة الحساسية العصبية لدى الطفل بتخفيف صدمة تغيير البيئة التي تحدث بخروجه من البطن إلى البيئة الخارجية ، ويكون ذلك بعدم تعريضه إلى الضوء الشديد والأصوات العنيفة وكذلك حفظه من الحر والبرد وضمان الجو الدافىء المقارب لحرارة الجسم .

ويجب أن نمتنع عن عادة دغدغة (زغزغة) الطفل لإضحاكه ، لأن استجابة الضحك لا تكون دائماً معبرة عن الفرح والسرور عند الطفل كما هو الشأن عند الكبير . فالضحك عند الطفل يكون مجرد استجابة جسمية . والدغدغة تكون عبارة عن منبه شديد يعرض الجسم كله إلى تقلصات ، ونشاهد بالفعل الجسم كله ينكمش ليعبر عن مقاومته ضد هذه المداعبة الضارة .

وهناك مواقف أخطر من هذه : إذ تقبل بعض الأمهات إلى لمس الأعضاء التناسلية لدى الطفل . وبعضهن يستغربن

ظاهرة الانتصاب عند الطفل الصغير فى السنوات الأولى من حياته ويقبلن على تنبيه العضو التناسلى . فزيادة عن الأضرار الخاصة بشدة الحساسية التي تحدث عنها ، هنالك أخطار نفسية أخرى تنتج عن هـــذه الاتجاهات فى المداعبة : وذلك لأن الحساسية الجنسية أقوى أنواع الحساسيات والمفروض أنها تظهر لتربط أعضـاء الجسم فيما بينها كما أنها تربط بين الجسم والنفس وتربط الفرد بالمجتمع ، ويكون من الخطر استعجال ظهورها وتأكيد اتجاهها نحو الأم . فذلك يحدث تعلقا شاذاً بين الأم وابنها ويعوق الابن بعد نموه ونضجه عن الاتصال الطبيعي بالناس عموما وبالمرأة خصوصاً . وتؤدى به هـــذه الحال إلى الانطواء على النفس وتجعـله يخاف من المجتمـع ويصاب بداء الخجل ويكون في نفس الوقت معرضا لأزمات انفعالية حادة مع شدة العاطفة المكبوتة .

ونلاحظ أيضاً أن الطفل يتأثر تأثراً واضحا بسلوك الأم إن كانت عصبية فان الطفل يأخذ منها جزءا كبيراً من حساسيتها ويقلدها فى مواقفها وتظهر عليه نفس الانفعالات التى تظهر عليهـا . وأثبت التحليل النفسى أن الكثيرين من الأشخاص

الذين يشكون من حزن لاشعورى يرجع أصله إلى حزن الأم الذى كان يستولى عليها وقت ما كان ابنها أو ابنتها طفلا

كما أننا نشاهد أغلب الأطفال الذين مات لهم أخ وهم صغار يصابون بنوع من الحساسية الزائدة لأن موت الأخ يؤثر أثراً خطيراً فى حالة الأم النفسية وتنعكس هذه الحالة بما فيها من انفعالات الحزن الشديدة على باقى الأطفال . ولهذا يحسن أن يبتعد الأطفال عن الأم إن كانت معرضة لأى انفعال حتى لا يتأثر الأطفال بتلك الحالة ويكون من الصعب بعد ذلك تخليصهم منها .



الشعور بالنقص

إن أخطر ضرر نلحقه بالأطفال فى معظم عائلاتنا هو الإيحاء بالشعور بالنقص الذى نغرسه غرساً فى نفوس أطفالنا. إننا منذ الطفولة المبكرة نحاول دائماً أن نحمى الطفل من الأمراض ونعبر أمامه عن الخوف عليه من أشياء لا يفهمها ونمنعه من أن يقوم بكثير من الأعمال خوفاً عليه من أن يتعرض إلى خطر ما . والأمهات يحاولن منع أطفالهن من بعض حركات ألعاب بدعوى أنها متعبة وأنها قد تعرض أطفالهن إلى مرض أو إرهاق . ويشاهد الطفل نفسه مقيداً محروما من اللعب فى الوقت الذى يقبل فيه زملاؤه على نفس الألعاب التى حرمه منها أهله . وبهذا يتكون فى ذهنه اتجاه ذهنى يجعله يعتقد أنه مخالف للآخرين وأنه ناقص بالنسبة لهم .

ويضاف إلى هذا الإيحاء عن طريق توجيه السلوك والحرمان إيحاء لفظي يجعل الطفل يعتقد اعتقاداً جازما أنه ناقص وذلك لأن أغلب الأمهات يحاولن دائما مجاملة الضيوف بمدح أطفالهم وتفضيلهم فى مقارنتهم بأولادهن . وكل منا

سمع بعض الأمهات يقلن لأحد أولادهن « أنظر فلاناً فانه أذكى منك وأما أنت فكسول لا تعرف شيئاً » . وتكون الأم غير جادة في كلامها ولا تكون منصفة في مقارنتها وإنما يكون الدافع هو رغبة إكرام أم الولد الآخر بصفته ضيفاً زائراً ويكون الكلام موجهاً للأم الزائرة أكثر من أن يكون موجهـا للطفلين . ولا تدرك الأم الموحيـة بالنقص لابنها أنها تغرس في نفس طفلهـا بذور شـعور هدام وهو الشعور بالنقص الذي يمكنه أن يقضي على شخصية الطفل ويعرضها للاضمحلال الخطير ويكون من الصعب بعد ذلك تخليصه من شعوره بالنقص .

ويكون الشعور بالنقص في أغلب الأحيان راجعا إلى شعور بضعف حقيقي ناشىء عن نقص جسمي أو مرض عضوى . ويكون الشعور بالنقص في مثل هذه الحالة قائما على أساس ثابت ويكون من الممكن التنبوء بظهوره ويستحسن توجيه الطفل إلى تعويض معقول حتى لا يطغى الشـعور بالنقص ويصير مركب نقص . والفرق بين الشعور بالنقص ومركب النقص هو أن الأول مجرد شـعور يتم في داخل النفس وأما المركب فهو سلوك الشخص الشاعر بالنقص

ويكون مركب النقص فى الغالب سلوكا شاذاً فيه إسراف يتعب من يعيشون بجواره .

ومن علامات الشعور بالنقص انطواء الطفل على نفسه وابتعاده عن الأطفال الآخرين . ويمكننا أن نشاهد هذا السلوك عند الأطفال الذين أصيبوا بشلل الأطفال في الرجلين أو في رجل واحدة ووجدوا أنفسهم فى حالة تختلف عن الأطفال الآخرين في القدرة على الجرى . إننا نشاهد ظاهرة التوقف تبدو واضحة حتي فى الأعمال الذهنية . كما أن الشعور بالنقص يظهر فى التردد العام فى كل مظاهر النشاط وأغلب الأطفال يصابون بالتأتأة نتيجة الشعور بالنقص .

وإننا فى ميدان التحليل النفسى نشاهد أن أعوص العقد النفسية قائمة على شعورنا بالنقص موجود من سنة الطفولة الأولى. ويتولد الخجل عن الشعور بالنقص وهو الخوف من الناس أفراداً أو مجتمعين . والخجل شبيه بالشلل لأنه يعوق الأفعال كلها عن الظهور فى الوقت الذى يكون فيه الشخص قادراً على القيام بها كاملة لو لم يكن الخوف والشعور بالنقص ناشئين عن الإسراف فى التدليل ؛ لأن الأهل يسهلون كل شىء أمام

الطفل ويحرمونه من القدرة على بذل المجهود المطلوب للنجاح في الحياة . بذلك يشعر الطفل بصدمة كلما وجد نفسه في موقف يخالف موقف أهله لأنه تعود أن تسهل له الأمور وتعرض هذه الصدمة الطفل إلى الفشل في تكيفه وتكون النتيجة أنه يبدأ يخشى الفشل ويتوقعه في كل موقف خارج الأسرة . ويظهر نوع من التعارض الغريب في سلوكه ، سيطرة فائقة في المنزل وشعور بالنقص في الخارج . ولذلك يبدو الشخص في كبره بشخصيتين مزدوجتين إحداهما عنيفة والأخرى ضعيفة .

ومن أوضح نتائج الشعور بالنقص بعد الانطواء على النفس هو البحث عن اللذة في داخل الذات في صورة الأكل والعادة السرية ، كما أن الشعور بالنقص يؤثر على النمو الذهني بشكل واضح ويبدو الطفل بليداً ناقص الفهم في الوقت الذي يكون ذهنه طبيعياً قادراً على الفهم المطلوب بالنسبة لسنه . ونشاهد القسوة الزائدة تولد عند الطفل الخوف الذي يشعره بالضعف والنقص . ويمكننا أن نذهب بعيداً في إيجاد علامة جسمية بين القسوة والشعور بالنقص لأن القسوة تجعل الطفل الضعيف يشعر بالرعب

والانزعاج الذين يحدثان إنفعالا شديداً لدى الطفل . والانفعال الذى عبر عنه إخواننا السوريون بالتهيج يهز الجهاز العصبي هزاً عنيفا . وكثرة هذه الهزات تولد شدة فى الحساسية وتجعل الطفل ميالا إلى الحياة الخيالية البعيدة عن الواقع وبذلك نجد أنفسنا أمام سبب آخر للعزلة والانفراد وما يتبعها من شعور بالدونية أو شعور نقص تعويضى فى صورة شعور بالعظمة .

ولهذا يجب على الأم البصيرة أن تلاحظ جيداً طفلها فيما يرجع للشعور بالنقص وتحارب أسبابه قبل الاضطرار إلى محاربته بعد ظهوره . وإن شاهدت الأم بوادره فعليها أن تستشير أهل العلم لتقضى عليه قبل نموه مع الطفل وتغلغله فى أعماق النفس .

ويجب على الأم أن تلاحظ الحالة العصبية لدى طفلها لأن الحالة العصبية قد تعبر تعبيراً واضحا عن طريق الحركات الطائشة والاضطرابات السلوكية .

ويمكننى أن أذكر حالة طفل كان والداه مختلفين وأراد الأب أن يجرح زوجته فقال لابنه وهو طفل فى الخامسة

من عمره : اسأل أمك أين أبوك ، فلم يفهم الطفل طبعاً مغزى السؤال ولا القصد منه وإنما فهم أن أباه يثير ابنه وأنه غير راض عنه لأن الطفل متعود سماع الانتقادات الموجهة إليه رأسا ولم يدرك ذهنه الطفلي التفصيلات الراجعة للخلاف بين الوالدين . وكانت النتيجة أن الطفل كتم حقداً ضد أبيه وبدأ يربى هذا الحقد فى نفسه وأظهره فى عصيان مستمر ليثبت شخصيته وقوته فى كفاحه ضد والده . وكان دائما كما عرفنا من بعد يتساءل عن السبب الذى دفع أباه إلى أن يقول له : « إسأل أمك أين أبوك » وهذا الطعن فى شرف الأم لم يظهر واضحا فى ذهن الابن لأن كل مايتعلق بالسلوك الجنسى وما يختص به فى الميدان الاجتماعي والعلاقات الزوجية كل ذلك طبعا لم يكن له أى دخل فى تفكير الطفل .

ولم يلبث هـذا الطفل أن استطاع أن يقضى على شعوره بالنقص علي أساس الفهم الأول الخاص بالانتقاد الغامض حتى أدرك الشاب المعنى الحقيقي لجملة الأب وبدأ يدخله الشك فى سلوك أمه . وكان هذا الشعور قاتلا لكل مواهبه إذ جعله ينزوى ويبتعد عن أصحابه ظانا أن غيره يعلم شيئا مما يعلمه أبوه ولاحظ الأب والأم والمدرسون أن العصبية الزائدة

إنقلبت إلى هبوط شديد وأصبح التفكير مسيطراً عليه إلى أن درست حالته النفسية وظهر أصل العقد النفسية التي أوحت بالشعور بالنقص الى درجة أنه انقلب الى مركب .

ولا ننسى أن الغيرة أكبر منبع من منابع الشعور بالنقص. وأغلب الأطفال يتعرضون الى الغيرة لأنها تنشأ عن تعدد الأولاد ، والسابق يغير دائما من اللاحق. لأن الأهل يفضلون دائما الأصغر وتشتد العناية به لضعفه ولحاجته إليهم أكثر من الأكبر الذى أخذ حقه من العناية . والغريب أن بعض الاطفال الصغار يغيرون من الكبار لأنهم أكبر منهم ويرون فى صغر سنهم نقصا .

وهذا الاصل للشعور بالنقص يكاد يكون عاما ويصعب على الآباء التحكم فى سلوكهم وعدم اثارة الغيرة بين الأولاد . ولكنه يحسن أن نعلم جيداً هذه الحقيقة ونحاول قدر المستطاع التغلب على عواطفنا لكى لا نؤذى الأطفال ونعقد نفوسهم بايحاء الشعور بالنقص . وأخطر أثر للشعور بالنقص يظهر فى ضعف الشخصية بل قد تتلاشى بتاتا إن لازم مركب النقص الشخص مدة طويلة من الزمن .

فلا بد من أن نتقصد الإيحاء بالثقة ويجب أن يكون هذا الإيحاء عمليا أى باتخاذ مواقف معينة نعامل فيها الطفل معاملة الواثقين منه المؤمنين بمواهبه واستعداداته ويجب دائما أن نبدأ بالمعاملة القائمة على حسن النية متفادين النقد والتحقير والشك . ويجب أن نفهم أهمية هذه النقطة فى تربية أطفالنا فانها الأساس فى التوجيه العام فى كل حياة الفرد . فالشعور بالنقص وما يتبعه من مركبات يعوق الشخص عن النجاح فى الحياة كعضو فى الأسرة وكعضو فى المجتمع كما أنه يحرم الشخص من السعادة الزوجية ، فالأب الضعيف يتسبب فى وجود أطفال ضعاف وهكذا تستمر السلسلة الفاسدة ان لم نواجه الشعور بالنقص ونكافحه بالوسائل السريعة فى الطفولة الأولى .



الشعور بالذنب

إننا نرى عـــدداً كبيراً من الأطفال ونرى معهم شعوراً بالذنب وذلك أننا نوحى إليهم بفكرة الخطأ ونكرر هـذا الإيحاء إلى درجة أن الطفل يتصور دائماً أنه مذنب . وفى كثير من الأحيان يكون هذا الإيحاء مؤيدا بالتهديد فيتكون فى نفس الطفل شعور واضح بالخطر وإن هذا الخطر راجع إلى ذنب ارتكبه . ويصل الآباء إلى هـــذا الموقف الباعث للشعور بالذنب فى نفسية الطفل عن طريق الشك وتوهم الأعمال الطائشة لدى الطفل ويوجههم شكهم هـذا إلى معاملة الطفل معاملة المذنب قبل توفر الشروط التى تؤيد حقيقة الأمر الذى يستدعى تأنيباً وتأديباً . وعلى هذا الأساس يشعر الطفل دائماً أنه مهدد من والديه الذين يستمران فى اعتباره مذنبا . وعندما يسأل الآباء طفلهم عن الفعل الذى يتوهمونه فانهم يوحون للطفل بفكرة الفعل الذى لم يكن يعرفه من قبل . وهكذا تكون تربيتهم فاشلة بل مضرة لأنها بدلا من أن تكون مانعة للفساد فانها تكون موجهة له .

ويمكننا أن نذكر حالة أسرة ارتكبت أخطاء إيحاء بالذنب وقد وصلت الحالة ببعض أفرادها إلى تفكك واصابات نفسية بليغة كان أب سيطر عليه الوهم والخوف تحت تأثير اضطرابات نفسية مكبوتة وكان سلوكه ضعيفاً فى الخارج وعنيفاً في المنزل . فكان دائما يسقط حالته على أولاده وبناته ويكثر من توجيه الأسئلة إليهم باحثا عن الأخطاء التى يمكنهم أن يكونوا قد أرتكبوها فى الخفاء وكان يلح عليهم ليعترفوا بذنوبهم. وكانت هذه العملية تتكرر مرارافى اليوم وتدخلت الأم لتحمي أولادها من هذا الايحاء . فانقلبت المشكلة النفسية لدى الأب إلى مشكلة اجتماعية بين الزوجين وتربى الأطفال فى هذا الجو من الخوف والشعور بالذنب . ولاحظنا أنهم انقسموا إلى قسمين ، فبعضهم مال إلى الفساد وكل ما كان الأب يخشاه ويوحي به فى نفس الوقت ، ومال البعض الآخر إلى استقامة شديدة وصلت إلي درجة التعصب فابتعدوا عن كل ما يمس الناحية الجنسية التى كان الأب يحذرهم منها ويعتبر أفعالها ذنبا لايجب أن يرتكب وكانت النتيجة وخيمة في التربية لأن الفريق الأول انهمك باصراف في اللذات الجنسية. وسلك الطرف الثاني مسلك الحرمان الضار

والمعرض للعقد النفسية المختلفة. وما يقال عن الناحية الجنسية يمكن أن يحدث فى كل الميادين الأخرى إذا وجهنا ذهن الطفل إليها وأسرفنا فى تحذيره منها إلى درجة أننا نولد فى نفسه شعوراً بالذنب. وبهذه الطريقة نصنع بايدينا وفى منازلنا مذنبين في نواحى السرقة والكذب وغير ذلك من الذنوب الخطيرة مثل جريمة القتل وهتك العرض.

ويمكننا أن نشرح علمياً هذه الحقائق فنقول أن الايحاء بالشعور بالذنب يجعل ذهن الطفل متجها اليه باستمرار ليحذره وليبتعد عنه. وهذا الايحاء الذهني المستمر يحدث توترا نفسيا يحاول الطفل فى بعض الأحيان أن يتخلص منه فيرتكب الذنب ليشعر بالراحة وليتخلص من التوتر النفسى ابداً كما أنه قد يقع فى ارتكاب الذنب تحت رغبة الاستقلال وفرض الذات. فلابد أن تكون المراقبة خفيفة والملاحظة حكيمة حتى لا نوحى إلى الاطفال بالذنب.

وفى أغلب الأوقات ننسى أن الأطفال يراقبوننا ويشاهدون أننا نقوم بالأفعال التى نحذرهم منها ويجعلهم هذا تحارون فى أمرنا ويتولد عندهم نوع من الشك فى كل

الارشادات التى نوجهها لهم. ويحدث نوع من الانفصال بيننا وبينهم وينطوى بعضهم على نفسه ويتعرض إلى اضطرابات نفسية . وأغلب الآباء الذين يسرفون فى الحياء أمام الأولاد وهم يشرحون لهم أشياء تتعلق بالحياة شروحا ناقصة أو وهمية يحدثون عند أولادهم نوعا من الحذر يتربى معهم ويتولد فى أنفسهم شعور بالانفصال عن الآخرين وأن هناك أشياء لا يجب معرفتها لأن الناس كلهم لا يرضون التحدث عنها .

وأغلب مشكلات الشعور بالذنب تقوم على الانفعالات الجنسية والانكار. ولهذا السبب كان السلوك الجنسى مركز الأمراض النفسية إلى درجة أن اعتقد فرويد أنه كل شىء فى العقد النفسية . والحقيقة أن الصلة الوثيقة بين الموضوعات الجنسية وبين الشعور بالذنب وما يدفعنا إليه من إخفاء هو سبب المشكلات النفسية .

يجب أن نراجع كل أفكارنا عن التربية ويجب أن نبعد عن ذهن أطفالنا كل ما هو زائد عن الحد في مراقبتنا لهم وفرض سلطاتنا عليهم ويجب أن نعامل الطفل كطفل ونندفع وراء شعورنا كبالغين لنحاسبه على التفصيلات الدقيقة المتعلقة

بمبادئنا الاجتماعية . يسمع بعض الأطفال كلمات نعتبرها خارجة عن حـــدود الأدب ، وليس الذنب ذنبه إن هى وصلت إلى سمعه ، فلابد من أن يرددها الطفل لأنه لا يعرف معناها ولأنه لم يتكيف بعد مع البيئة الاجتماعية . فلا يجوز أن نعتبر لفظة فاحشة من فم طفل جريمة نستعمل كل قسوتنا لنعاقبه على استعمالها. فكل ذلك ينافي تفكيره وهو لا يفهم ذنبه ولا يفهم الداعي الحقيقي لقسوتنا واشتدادنا فى محاسبتــه على هذا اللفظ دون غيره . يجب أن نحارب الضرر الحقيقى والأخطاء العملية فى السلوك بدلا من أن نتعلق بالقشور ونعقد نفسية الطفل بمحاربتنا الألفاظ . إن الطفل الذى يحتــاج إلى عنايتنــا لتوجيهه فى أكله ونومه غير مسؤول عن ترديد كلمة وصلت إلى سمعه ، ولهذا يجب أن يكون موقف الآباء مجرداً عن الانفعال ويظهر فى صورة نصح هادىء رزين بإفهام الطفل أن هذه الكلمة غير جميلة . وأكاد أبيح للآباء عدم النهى عن اللفظ والاتجاه إلى شرح معناه لأن فهمهم الطفل لمعنى كلمة فاحشة هو الذى سيعوقه فى يوم من الأيام عن استعمالها دون أن يكون هناك تهديد وانفعال .

ولا يجوز لأحد أن يفهم من هذا أن ليس هناك عند الطفل ذنب بل هناك اتجاهات كثيرة تفضح عند الطفل استعدادات عدائية ، يندفع بعض الأطفال تحت تأثير الغيرة أو الشعور بالضعف إلى أفعال تعويضية أى أفعال غايتها إثبات الشخصية وايحاء بالقدرة ،وهذه الاتجاهات العدوانية مصحوبة بشعور لذنب إذ أن الطفل يحاول إخفاءها ويكذب عندما يسأل وعن سبب قيامه بها .

والخلاصة : يجب أن نعامل الطفل كطفل له عالمه الخاص وأن كل مايمكن اعتباره ذنبا فى تفكيرنا قد لا يكون الطفل مدركا له كما ندركه نحن . وبذلك قد ننجح فى تربية الطفل دون توليد شعور بالذنب فى نفسه



الطفل السعيد

إن الهدف الأكبر الذى يقصده علم النفس من دراسته للطفل هو تحقيق سعادته .

وباسعادنا الطفل فاننا نسعد الأم ، ونحقق الاطمئنان بين أفراد الأسرة التى يعيش فيها الطفل السعيد . وكلنا يعلم ما يمكن للطفل — على ضعفه — أن يمنحه من سرور لمن يعيشون حوله عندما يكون سعيدا . فان كانت سعادة الطفل هامة لهذا الحد فلم لا نتعب لتحقيقها ونشرها بين أغلب الأطفال ، فبدلا من أن تعانى الأم محنة فى تربية طفلها يمكنها بشىء من العناية الوصول للتمتع بلذة التربية وإلى إسعاد الأسرة كلها .

ويجب أن نذكر دائما أن الصحة هى منبع سعادة الطفل فلابد من بذل كل مجهود فى سبيل وقاية الطفل من كل اضطراب يمكن أن يضعفه . والعناية تبدأ من أيام الحمل الأولى . فلا يجوز لأم شعرت ببدأ تكون الجنين فى أحشائها أن تسرف فى أكل المواد الحارة لأن التهاب الأمعاء وما يتبعه

من تعب عصبي داخلي يؤذى أعصاب الجنين ، ويولد الطفل مستعداً لشدة الانفعالات . وينهى الأطباء الحوامل فى أوروبا عن تناول الخمر فيجب علينا فى الشرق أن ننهى الحوامل عن الإسراف فى أكل الفلفل الحار وما يشبهه من « الحوادق » .

ونفهم قيمة هذا النهي إذا تذكرنا أن بعض السيدات يستعملن الخمر كوسيلة للاجهاض أى أن ما يحرق الأعصاب سواء كان كحولا أو فلفلا أو تعباً زائداً يعرض الجنين للسقوط . وفى الغالب لا يسقط الطفل ولكنه يتكون تكوينا ناقصا ويولد مشوها أو ضعيف التكوين العصبي ليعيش شقيا طول حياته . والطفل الناقص فى جسمه أو فى أعصابه كارثة على الأسرة وعلى المجتمع . فأنا لا أكتفي بهذا النهى ، بل أوصى الأمهات الحوامل أن يكافحن ضد الإمساك فى مختلف درجاته لأنه يعرض الأم للضعف ولأن الفضلات بتأخرها فى الامعاء تحدث تخديرا وتفعل فعل الخمر ويضطرب النمو الطبيعى لدى الطفل الذى بدأ تكوينه فى جسم سليم يولد سليما وينمو بسهولة فى جو من الهدوء والمرح وتكثر ابتساماته الجميلة التى تدخل السرور فى قلوب كل من يشاهدونه .

وأما الأطفال الذين ساء حظهم وحملتهم أمهات جاهلات فكرن فى أنفسهن ولذاتهن ، فإنهم يولدون ضعافا ، يسرفون فى البكاء ، ويكونون خاملين يبدو عليهم الذبول والحزن دون سبب . وأغلب الأشخاص الذين عرفهم التحليل النفسى بؤساء فى حياتهم دون أن يكون لهم عقد ولا صدمات فإنهم كانوا أطفالا بؤساء منذ أول لحظات حياتهم .

وأثبت فرويد أن الطفل يتعلق بأمه ويشعر بضيق عند ابتعادها . يولد فى نفسه أول بذرة للقلق ، فيجب أن تتعود الأم النظام الدقيق فى أوقات الابتعاد عن طفلها ، وذلك لأن ابتعاد الأم يحدث نوعا من الألم النفسى يعبر عنه الطفل بالبكاء . فيمكننا تفادى هذا الألم بنظام معين ثابت يجعل الطفل يتعود غيابها فى أوقات معينة ، ويحسن أن يكون الانفصال صريحا لا خلسة كما تفعل بعض الأمهات . فالطفل البالغ من العمر سنتين يبحث عن أمه بشدة لأنه يعانى آلام الانفصال عنها بالمشى ، فهو يلح فى طلبها ويتعرض لأزمات نفسية مقلقة ، ولكن الأم التى تكون قد تعبت من تربيته ، وترغب فى نوع من الراحة وتسلمه للمربيات

أو الأقارب . ونشاهد أغلب الأطفال فى مثل هذه السن يتعرضون لصراخ شديد طالبين أمهم . وكثيرا ما يقول من حولهم : ستأتى حالا ، وهم يعلمون أنها ستغيب مدة طويلة ، وينتظر الطفل متعرضا فى كل مرة إلى خيبة أمل . ويقضى هذا الاضطراب على الاطمئنان والسعادة بخلاف الحال عندما يتعود الطفل غياب أمه فى أوقات معينة ويتفنن الأهل الذين يحرسونه مدة غيابها باشغاله وتركه يلعب ألعابا متنوعة . وبمشاهدة ما يفعله فينا الانتظار ونحن أقوياء لنعلم أننا نقضى على راحة الطفل الطبيعية عندما نعرضه لانتظار طويل سواء كان للقاء أمه أو ليأكل أو لغير ذلك . وهناك قاعدة تقول الانتظار يولد الانفعال والانفعال يعكر الدم ويفكك الأعصاب ، فكيف يمكن لطفل أن يكون سعيداً إن وجد نفسه دائما فى مواقف انتظار تهدد كيانه .

وهناك موضوعات أخرى هامة يجب التفطن اليها لتحقيق سعادة الطفل ، فان الطفل يبذل — مثل كل كائن حى — طاقة ومجهوداً للوصول إلى التكيف مع البيئة التى يعيش فيها

فعندما نضع طفلا بين أيدى مربيته ، فانما يحاول الخضوع إلى عاداتها ويتأثر بناء على ذلك بجزء من طباعها . فعندما نكثر من تغيير المربيات فان الطفل يتعرض إلي آثار نفسية مختلفة ويبدأ اتجاهات متعددة دون أن يستمر فى إحداها . وتظل هذه الاتجاهات معلقة كالمشكلات التى لم تحل. ويمكننا أن نضرب حالة الطفل المتعرض لتغيير مستمر فى المربيات بحالة بدولة وأمة تعددت حكوماتها فى فترة قصيرة من الزمن، كل حكومة تبدأ مشروعات تهدمها الحكومة التى تليها . ويثبت علم الاجتماع أن هـذه الحالة من عدم الاستقرار تضعف الأمة فى نموها الاقتصادى والثقافى وغير ذلك . فكذلك عند الطفل يحدث تغيير المربيات اضطرابا واضحا فى الشخصية .

وأثبتت الملاحظة أن الطفل شديد الحساسية لتغييرات مزاج الأم والمربية ويتأثر بسهولة لحالتها حتى أن بعض الأطفال يبكون لمجرد مشاهدة تعبير الحزن فى وجه من الوجوه . فان ابتسمنا لطفل رضيع فانه يجيب بابتسامة ، وإن وترنا عضلات الوجه فانه يتوتر .

إن كانت حساسية الطفل تصل إلى هـذه الدرجة من

الإدراك والاستجابة فما الك حالة تعريضه إلى صراخ ناتج عن خلاف بين أعضاء الأسرة أو عندما يتعرض إلي أضواء شديدة أو أصوات عالية فى حفلة كبرى ، كل هذه الإحساسات الشديدة تتعبنا نحن وتوتر أعصابنا وتعكر مزاجنا وهى بالنسبة للطفل أكثر خطرا .

ان تفادينا هذه الأخطاء كلها فصحة الطفل تكون دائما فى ازدهار ونموه مطردا فى اتجاه طبيعى . والصحة هى منبع الانشراح والشعور بالاطمئنان ، والطفل السعيد يميل إلى الحركة فلابد من أن نفسح له المجال ولا بد من أن نرعاه فى حركاته لنخرجه من بعض المـآزق التى يتعرض لها . وكبت حرية الطفل يجعله يشعر بالسأم والضيق ويعرضه إلى توتر ان استمر أحدث انفعالا وغضبا أو يفر إلي النوم .

ويسعد الطفل أن يطلع على أشياء متنوعة غريبة بالنسبة له فيحسن فى بعض الأحيان أن نساعده على التركيز بنوع من التشويق ، وإذا اتجه انتباهه إلى شىء من الأشياء فلا ينبغى منعه بقوة ، كما أن عملية الإخفاء والإبعاد تفتح عند الطفل باب الشك . فالطفل منذ سن الرابعة يدخل فى طور الإكثار

من الأسئلة ، فيحسن أن نجيبه إجابة ملائمة لذكائه. وأعترف أن أسئلة الأطفال تكون فى بعض الأحيان محرجة تثير موضوعات جنسية لا تمكنه سنه من فهمها ، وأحيانا تثير أسئلته موضوعات علمية يجهلها المسؤول نفسه، فماذا يمكننا أن نقول لطفل يسأل عن سبب كون القمر دائرا ، ففى هـذه الحال يمكن الإجابة بتشبيه .

وقد ذكر كلاپاريد — العالم النفسى السويسرى — أن طفلة فى سن الرابعـة أصيبت بداء التفتيش والتنقيب بشكل مَـرضي ، تلح فى تحقيق رغبة البحث فى كل درج وفى كل خزانة وتعدت المسألة إلى حقـائب يد السيدات الزائرات . فكانت الطفلة تثير ضجة برغبتها فى التفتيش المستمر حتى فى الجيوب والظروف وغير ذلك، تريد أن تفتح كل مقفول حتى تعرف مافيه — ويمكننا أن نتخيل الأزمات الناتجة عن هذا السلوك الشاذ — ووجد كلاپاريد بعد تحليل هـذه الطفلة تحليلا نفسيا أنها كانت سألت أهلها مرات عديدة عن مصدر الأطفال فأجيبت إجابات غامضة وكانت الطفلة فى منتهى الذكاء فسألت إحدى زميلاتها فى المدرسة فأخبرتها عن الحقيقة . وادى بها ذلك إلى انتزاع الثقة من أهلها وتوهمت أنهم يخفون

عنها أشياء أخرى وبناء على ذلك بدأت تبحث بنفسها إلى أن تفاقمت حالتها .

والخلاصة أننا نستطيع أن نجعل من الطفل كائنا سعيداً مرتاحا مريحا ان تفادينا بعض الأخطاء فى الغذاء بالنسبة للحامل ، كذلك عندما تنقذه من الانتظار المتعب وتبعده عن الصراخ والضوضاء والأنوار الساطعة وعندما نتفادى تغيير المربيات ونسايره فى رغبة الأسئلة فى سن السؤال . بذلك نتفادى التوتر ونحقق السعادة ونقضي على بذور العقد النفسية

مشكلات الطفولة

إذا حاولنا أن ننظر إلى مشكلات الطفولة فيجب أن نقسمها إلى قسمين هامين :

أولا : المشكلات التي ندركها في حياة الطفل نفسه .

ثانياً : المشكلات التي تبدأ في الطفولة ولا تظهر آثارها إلا بعد سن البلوغ وفي مراحل النمو المختلفة في حياة الإنسان .

فالمشكلات التي يتجه إليها الذهن عندما نتحدث عن حياة الطفل عديدة نذكر منها صعوبة إخضاعه إلى التكيف الاجتماعي . إن الطفل كائن حر مستقل عن عالمنا الاجتماعي بما فيه من قوانين وفروض وأولها قوانين النوم التي تحتم على البالغ أن ينام بالليل ليباشر أعماله بالنهار . فالطفل الذي لا يتحمل أية مسئولية ينام وقتما يشاء ويصحو بعدما يأخذ حقه من الراحة ليبدأ نشاطه في ميدان الهضم وبعض الحركات الحرة التي تتمثل في اللعب . ومن هنا تبدأ أول معركة بين الطفل والمجتمع ، فانه يحتاج إلى هدوء حوله في

أغلب أوقات النهار ويحتم على أمه وأفراد الأسرة الآخرين أن يقتصدوا فى حركاتهم وأن يكبتوا جزءا كبيرا من نشاطهم حتى لا تحدث ضجة قد تزعجه وتعكر عليه صفو نومه وفى كثير من الأحيان يحلو للطفل أن يصحو بالليل ويحتاج إلى من يلاعبه أو يحقق رغباته المختلفة التى تدور فى الغالب نحو العمليات الهضمية فيأخذ حريته فى البكاء معبرا عن رغبات ملحة أو ملفتا الأنظار إليه ومحتجاً على إهماله . وكثيراً ما يؤدى هذا الصراع بين حرية الطفل والتكيف الاجتماعى إلى ثورات عصبية عند أهله ، وتبدأ الثورة فى الغالب عند الأب وتتحمل الأم نزوات طفلها إلى حد معين لتغلبها ثورة العصبية بدورها هى الأخرى .

وأغلب الناس يجهلون التصرف الملائم فى مثل هذا الموقف وإهمالهم هذا يعرّض الأسرة إلى أعنف أنواع الصراع لأن المشكلة الأولى الخاصة بتكييف نوم الطفل تكييفاً اجتماعياً تُترك معرضة للصدفة ولا نجد الحل العلمى المستند إلى دراسة نفسية الطفل على الملاحظات الدقيقة والتجارب المحكمة .

ويحسن بنا أن نؤكد للأمهات أن العناية بالتوجيه عملية

النوم عند الطفل قد تكون من أهم الخطوات التربوية التي تقضي على معظم المشكلات التي سنشير إليها فيما بعد ، بل إن حل مشكلة الطفل الخاصة بالنوم قد تكون اساسية لتحقيق الضمان الصحي للطفل وعلينا أن نفهم أن الطفل مستعد للنوم في معظم أوقاته إن كانت عملية الهضم لديه منتظمة ، أي لا بد من تنظيم أوقات الرضاع والأكل حتى لا يتعرض الطفل إلى الجوع الذي يحدث آلاما في المعدة وبذلك يمتنع النوم ، كما أنه لا يحسن أن تتقارب وجبات الرضاعة والأكل حتى لا يصاب الطفل بالتخمة التي تعرض الطفل إلى اضطراب في جهازه الهضمي يؤدي أيضا إلى تعذر النوم . إن بكاء الطفل — خصوصا إن استرسل فيه — لدليل صريح على فقدان التوازن الصحي ويدعو الأهل إلى البحث عن سبب اضطراب هذا التوازن ، وبما أن نشاط الطفل كله تقريبا محصور في الميدان الهضمي فانه يسهل على الأهل أن يكتشفوا سبب البكاء الذي يعوق نوم الطفل ويحدث إشكالا في ميدان التكيف الاجتماعي ويعرض الأهل إلى ثورات يعبرون عنها بحركات عنيفة قد تصل إلى إيذاء الطفل وتهديده بأفعال مؤلمة .

ويتصل بهذا الموضوع مشكلة الفطام التى تفرضها حياة الأم الصحية أو الاجتماعية كما يفرضه القانون الطبيعى الذى يقضى بانفصال الطفل عن أمه . وهذه العملية أيضاً مهملة إهمالا شنيعاً فى أغلب أوساطنا الشرقية، إذ أن أغلب الأمهات يفطمن أطفالهن بطريقة فجائية فيجد الطفل نفسه أمام تصرف فجائى فى أهم عملياته الحيوية بعد ما كان متعوداً تناول غذاءه من الثدى وإذا به يجد أمه تمنع عنه الرضاعة لترغمه على تناول الأكل الطبيعى الذى يتناوله الكبار ، ويؤدى هذا التصرف الفجائى إلى اصطدام بين الطفل وأمه ويستعمل الطفل سلاحه الوحيد وهو البكاء المتواصل الذى يقلق راحة الأسرة كلها بل قد يتعدى القلق إلى الجيران الأقربين . وعند ما تسأل الأم فى هذه الحالة عن سبب صراخ طفلها فإنها تجيب فى بساطة « إنه يصرخ لأننا فطمناه » كأن الأمر طبيعى والمشكلة المنتظرة تقف آثارها عند حد بكاء الطفل وانزعاج الأسرة والجيران ولكن الأم تجهل أنها بعملها هذا تحدث أول انفصال عاطفى بينها وبين طفلها وأن هذه الصدمة قد تؤثر فى صحة الطفل من نواح عدة لأن أغلب الأطفال الذين يفطمون بهذه الطريقة الفجائية يتعرضون إلى هزال وضعف

جسمى خصوصا في وقت يصادف ظهور الأسنان التي تحتاج إلى كمية زائدة من الكالسيوم وغير ذلك من المواد الهامة في حياة الإنسان .

يمكننا أن نتفادى كل المشـــكلات التى ندركها والتي لا ندركها باتباع خطة محكمة تخلص الطفل من عادة الرضاعة لتخضعه للطرق العادية المتبعة فى الغذاء لأن عملية القضاء على عادة راسخة عند الكائن الحى ليس بالأمر الهين حتى عنـــد البالغين الذين يتمتعون بقوة إرادية وصفاء ذهنى فان القضاء على كل عادة يتطلب حكمة تفرض خطة تدريجيـــة تجعل الطفل لا يحس بالتغير ولا يعرضـــه للمفاجأة ويبعد عنه الاضطراب الذى يحدث عن الصدمة . ويمكننا أن نعتبر تمسك البالغين بعملية التدخين رغم إرادتهم التي تحملهم خسارة اقتصادية وتعرضهن الى اضطرابات صحية رغم كل احتجاجهم وثورتهم ضد هذه العادة ، يمكننا أن نعتبرها ضربا من التعويض عن فقدان عادة الرضاعة بطريقة فجائية ، نقول هذا بطريقة تجاوزية ولا نهمل العوامل الأخرى التي تؤثر فى عادة رغبة التدخين .

ولا شك أن الفطام الفجائى يحدث هزة عصبية تترك أثراً

بليغاً فى صورة توتر يعوق النمو كله بينما أن الفطام التدريجى يبعد عن الطفل كل هـــذه الاضطرابات التى تولد المشكلات المتعـددة . فيمكننـا أن نجعل عملية الفطام تستغرق شهراً أو شهرين فنترك الطفل يرضع وفى نفس الوقت نبدأ تعويده ليتناول طعاما غير سائل ثم شيئاً فشيئاً نقلل من الرضاعة ونكثر من الطعام ولا ننسى أن عملية الفطام المتجهة فى الاتجاة الطبيعي إنها حتما تامة بأى شكل من الأشكال ولا داعى إلى تعريض الطفل إلى الصراع العنيف الذى يفتح باب المشكلات العديدة .

إننا نعطى أهميـة كبرى إلى مرحلة تنظيم النوم والطعام لأنها المرحلة التى يمكنها أن تحدث بين الطفل وأهله ويكون الطفل دائماً هو الغـالب فيلجأ الأهل إلى التهديد والتخويف والضغط وأحياناً تصل القسوة إلى استعمال الضرب ويلجأ الطفل بعد ذلك إلى ارتكاب كل الأفعال التى لا يرضى عنهـا الأهل . ويمتنع عما يطلب منه أن يقوم به وإذ يعلم أن أهله يهتمون بأكله ويلحون عليه أن يأكل فانه فى الغالب يمتنع عن الأكل بنية الاحتجاج والانتقام .

وتبدأ المعركة بعد ذلك تشتد عنفاً كلما نما الطفل وزادت قوته فيخلط الطفل بين الشعور بالأنا وبين العناد والمقاومة ،

فيستغل الصراع بينه وبين أهله ليثبت ذاته منتصراً فى أغلب مواقف العناد إلى درجة أنه يعذب أهله مستغلا عطفهم نحوه فيهدد الطفل بتعريض نفسه إلى الأذى أو الابتعاد والفرار من المنزل ليشاهد أهله يعرضون عن موقفهم ملبين كل رغباته .

حقاً إن هذه المشكلة تحير الكثيرين منا وتدخل النكد على معظم الأسر إذ يصل الطفل المشكل إلى أن يكون نقطة الارتكاز فى الأسرة كلها ويسيطر عليها سيطرة قد تقلق راحة أفرادها وفى مثل هذه الحالة يمكننا أن نشير إلى النفسية عند الطفل ويتحتم البحث لمعرفة الأصل وإرجاع التوازن . وهذه المشكلات التى أشرنا إليهـا هى المشكلات الراجعة إلى أخطاء الوالدين ، فلا يكون الحل إلا بابعاد الطفل مؤقتاً وجعـله يعيش فى وسط من الأطفال الطبيعيين، وهذه الطريقة فى العلاج تسمى « بالعلاج الجمعى » . ويمكننا أن نشير أيضاً إلى بعض المشكلات الخطيرة عند الطفل : إذ أنه فى بعض الأحيان تحت تأثير التهديد تضطرب بعض الوظائف الهامة عنده مثل النطق أو المشي ، وتؤثر هذه الاضطرابات على النمو النفسى لأن الطفل الذى يتأخر عن المشي يظل متعلقاً بأمه مدة أطول من الأطفال الآخرين ويؤثر هذا التعايق فى شعوره بالأنا أى فى عملية

الاستقلال بذاته . وقد أثبت علم النفس المقارن أن عملية المشى تؤثر تأثيراً هاما فيما يرجع بعلاقة الطفل بأمه ، وإلى هـذه العلاقة ترجع مشكلة تشبث بعض الأطفال بأمهاتهم تشبثاً مـرضياً إما أن ينتهى بانفصال عنيف وإما أنه يستمر اتصالا مرضياً ويعيش الطفل عالة على أمه بدلا من أن يستقل بذاته ويباشر حياته الطبيعية مستقلا مثل باقى الأفراد .

وعملية النطق والكلام متصلة اتصـــالا مباشراً بعملية التفكير ، فالطفل الذى تكون صلته بأهله طبيعية يتمتع بمحادثتهم ويساعده ذلك على تعلم الكلام الذى يحرك التصورات الذهنية ويمرنها فيكتسب الطفل تجارب عديدة ويمكنه أن يصل إلى التفكير الطبيعى بطريقة سهلة دون أن يكلفه ذلك أى عناء ولا تعب بينما أن الاطفال الذين يبدأون حياتهم فى جو صاخب يسوده الصراع يبتعدون عن أهلهم وينطوون على أنفسهم ويحرمون كل ما يساعدهم على تعـلم الكلام وقد يكون هذا سبباً فى الأخطاء الكثيرة فى نطق بعض الحروف أو فى التأتأة وغير ذلك من الاضطرابات التى تصيب الكلام.

وهناك أطفال جعلتهم ظروفهم يعيشون في أسرهم منفردين، أما لأنهم أطفال وحيدون وأما لأنهم أصيبوا بضعف جسمي

يجعل أهلهم يعتنون بهم عناية زائدة ، فهذة المعاملة تجعل الطفل يعتقد أن كل الأشياء ملك له ويسرف فى الطلب ويحاول أن يخضع كل الرغبات لرغبته هو ولذلك نراه يتصلب فى الرأى ويتمسك باتجاهه ويحاول أن يحمل الناس كلهم على الخضوع له ، ومن هـذا السلوك الذى يجعل الذات مركزاً لكل اهتمام يحدث اصطدام وصراع يجعل الطفل يقع فى مشكلات عنيفة قد تصل به إلى حالة التشنجات العصبية . هذا النوع من الأطفال يفشل فى نواحى الحياة الاجتماعية ومن بينها الحياة الزوجية لأنه لا يستطيع التكيف بعدما تعود الدلال فى طفولته .

وهنا يحسن أن نشير إلى نوع شائع من المشكلات التى يقع فيهـا الأطفال تحت تأثير جو الخلاف العائلى بين الأبوين . إننا نهمل تماما الأثر بل الاثار التي يتعرض لها الطفل نتيجة للنزاع العائلى ، إن الطفل من أول أشهر حيـاته يبدأ صلته العاطفية بأمه لأنها مصدر غذائه ولأنها المفر الذى يلجأ إليه ليحمى نفسه من كل خطر يمكن أن يهدده ولذلك نراه فى بعض الأحيـان يشعر بالغيرة على أمه ويعتبرها ملكا

له ولا يقبل أن تكون ملكا لغيره . فعندما يرى أمه فى حالة غضب أو حزن يتأثر حتما ويشاركها انفعالاتها مشاركة فعالة فتراه يبكي لبكائها ويسر لسرورها . لنتصور حالة هذا الطفل عندما يشاهد أمه فى حالة خلاف مع والده فان الطفل الذى يحب أبوية يتعرض إلى ذبذبة عاطفية وحيرة انفعالية ويجد نفسه مضطراً إلى أن يميل إلى ناحية مضحيا بالناحية التى يتصل بها روحيا . وقد أثبتت التجارب والملاحظات أن الطفل الذى يعيش فى جو يسوده الخلاف العائلي يصاب بعد ذلك بحالة عدم استقرار فى أفعاله ويصاب فى شبابه بجفاف عاطفى أو بالعكس تراه يندفع وراء العواطف باحثاً عن الحب ليعوض النقص العاطفي الذى شاهده فى علاقة أبوية . إن الطفل الذى يشعر بالانفصال بين شخصين يعزهما يميل إلى الحالة العاطفية كأنه يولد فى نفسه ما يشعر به من نفس البيئة . وكثيراً ما يؤثر هذا الخلاف فى الطفل تأثيراً كبيراً بليغاً يظهر فيه كرجل أو كأب فيكون قاسياً على أولاده قسوة غير طبيعية تعرض أولاده إلى مشكلات جديدة وتتكون سلسلة من سوء المعاملة يصعب على بعض المحللين ذاتهم الوصول إلى منبعها لأنه يحدث كبت انفعالى ولا يمكن الوصول إلى أصل الانفعال إلا بطريقة تداعي المعانى الحر .

ومن المشكلات التى تظهر فى الطفولة وتستمر آثارها فى مراحل النمو ، نجد مشاهدة الطفل للفعل الجنسى بين الأبوين أو بين الأم وأى شخص آخر فان هذه المشاهدة تثير نوعا من الغيرة قد تصبح مرضيــة وعامة فى السلوك كله ويصير الشخص ميالا إلى السيطرة التــامة على من يحب بصفة تكاد تكون جنونية ، وإذا وجد من يلبى رغباته فى الغيرة فان اضطرابه ينقلب إلى حب الذات ويعشق ذاته وتظهر حالة النرجسية ويصير الشخص متعلقاً بذاته ويخاف عليهـــا من الأمراض المتعددة إلي حد الوهم المرضى فنراه يخرج من وهم ليقع فى آخر مهما كلفه ذلك من خسارة ماليه ومتاعب جسمية.

والخلاصة أن سيكولوجية الطفل لموضوع هام يجب العناية به لأن دراسة هذا الموضوع توفر علينا جهوداً جبارة نبذلها لـكي نخلص البالغين من عقد ترجع جذورها دائماً إلى المشكلات العديدة التى يتعرض لهـا الطفل . وهـذا الموضوع الواسع الأطراف لا يسعنا أن ندرس كل جزئياته ، وإنما يجب أن نعلم أن الصراع بين الطفل والمجتمع صراع حتمى فيجب أن نبذل كل مجهود للتخفيف من حدته خصوصاً فى ميدان النوم وميدان الغذاء .

حركة الطفل

أن الحركة هى أهم ما يميز الحيـــاة فى كل مظاهرها ومستوياتها ، ولهذا تكون سلامة الحركة عند الطفل عاملا من عوامل النمو . فالطفل الخامل يدعو إلي القلق ويدفع إلى التفكير فى حالته .

ويعتبر مصابا بشذوذ ، وقد يكون مهدداً بتوقف فى النمو الجسمي والنفسى .

فليس لنـا وسيلة أخرى غير الحركة لتتبع نمو الطفل فى السنة الأولى من حياته . فاننا نعجب بالطفل الذى يستطيع تقليد الكبار فى بعض الحركات البسيطة . فعندما نلاعب طفلا نشاهده يحتفظ ببعض الحركات المتصلة باللعب ويحاول القيام بها من تلقاء نفسه ليذكرنا بلعبة معينة يدعونا لهـا وأهم ما يعتنى به الطفل من الحركات التى تساعده على بعض الأشياء فنشاهده يتجه بيده إلى كل شىء ، وبمـا أن نشاطه يكون كله موجها نحو غريزه الأكل فانه يحاول وضع كل الأشياء فى فمه . ولهذا يحسن أن تكون اللعبة المقدمة له مختارة

من بين الأشياء التى لا يمكنه بلعها . وتنسى بعض الأمهات هذه النقطة الهامة أو أنها تعول على ملاحظتها له ولكنها لا تلبث أن تتركه فترة بسيطة لتفتح باباً أو لأى عمل آخر سريع . فيكون الطفل قد بلع الشىء وتحدث تعقدات تزعج الطفل والأسرة معاً .

ويحسن أن نعلم الطفل فيما بين الشهور الستة الأخيرة من السنة الأولى بعض الحركات اليدوية المفيدة مثل حركات النداء والوداع . فان الطفل يصل فى حوالى الشهر التاسع تقريباً إلى استعمالها بطريقة تدعو للارتياح . وتكون جميلة وتثير إعجاب كل إنسان .

والحركات عند الطفل تكون سهلة وسليمة من التوقف العصبى إن كان الطفل طبيعياً فى التسنين ، أى إن كان نمو الأسنان خاضعا للقواعد الطبيعية . ولا ننسى أن الفترة الثانية من السنة الأولى هى أخطر مرحلة فى مصير الطفل من الناحية العصبية والحركية . ففيها تبدأ الأسنان فى النمو والظهور وتكون هذه العملية شاقة مؤلمة وتؤثر فى كيان الطفل كله . ولابد من أن نساعده مساعدة فعالة وأن تسهر الأم بنفسها

على كل مراحل التسنين

وإنى شاهدت أمهات مثقفات يتصفن بالذكاء ، ومع ذلك يهملن أطفالهن فى هذه الناحية الدقيقة ، ويتركن الطفل يتألم وحده وذلك لأنهن يغفلن عما يتعرض له الطفل من عناء فى الفم وفى الأمعاء وفى الحركات كلها .

نشاهد بعض الأطفال فى الشهر العاشر من عمرهم يضغطون بالشفتين فى داخل الفم الخالى من الأسنان ، وأحيانا يستعملون أصابعهم أو أياديهم ويميلون إلى عض الأشياء اليابسة وذلك لأنهم يتألمون فى مكان نمو الأسنان المتأخرة . وهذه الآلام تحدث تقلصات فى المعـــدة والأمعاء وتضعف عملية الهضم ، خصوصاً وأن الأمهات المهملات لا يخترن الطعام الملائم لهذه السن ، ويتعرض الطفل إلى إسهال شديد يضعفه ويميل الطفل إلى الذبول ويصاب جهازه العصبى طبعاً بالهبوط فتتأخر عملية المشى والمحاكاة الصوتية التى تؤدى إلى النطق والكلام . وينطفىء انتباه الطفل وتشعر الأم بحزن واضح ويصعب على الطبيب مساعدتها فى كل المشكلات بعـد تجمعها .

وأهم نقطـــة تتصل بموضوعنا النفسي فى مثل هذا الاضطراب هى الحالة العصبية التى تظهر على الطفل المتألم فى لثته أشهرا متواصلة . إننا نشاهد هذا الطفل يبكي أحيانا بكاء هادئاً من تلقاء نفسه ، وأحيانا أخرى يبكي بكاء شديداً أو يقوم بحركات عصبية شبيهة بالحركات التشنجية تدعو إلى القلق . وأنا شخصياً لا أتأثر فى حياتى بشىء كتأثرى بمنظر طفل يتوجع أشهرا طويلة وحده فى الوقت الذى تحرص فيه الأم على تغذيتـــه وتحصر همهـا فى ذلك فتلبك معدته وتقلق راحته ، وأحيانا نشاهد الطفل يرفض الطعام ويصاب بالهزال .

وإنى باسم هؤلاء المتألمين الصغار أنادى ملفتا النظر إلى أزمة التسنين عند الطفل ويجب على الأب والأم معا أن يترقبا هذه المرحلة ، وليساعدا طفلهما بعملية التدليك مستعملين معجونا خاصا يشير به الطبيب . فعملية التدليك تخفف الألم وتريح الأعصاب . ونشاهد الطفل الصغير الذى يرفض كل شىء يفتح فمه وينتظر هذه العملية من الآخرين، وهذا دليل على ما تحدثه له من راحة . ويجب أن يعطي للطفل غذاء

سهلا مثل اللبن الزبادى وعصير البرتقـال . ولا تقدم له المأكولات المجسمة مثل الخبز ، وأما تقديم اللحم فيعتبر ضربا من الشذوذ العقلي يعرض الجسم كله إلى الاضطراب ويتلف الجهاز العصبي ويبدأ الطفل حياة نفسية شاذة .

أن معاملة طفل صغير تعرضه إلي آلام لا يستحقها بدلا من أن نحميه منها ، فلايجوز أن ندفعه اليها . ونظرة بسيطة تعطيك فكرة عن حالته النفسية فتدرك الراحة فى ابتسامته وحركاته المعبرة عن الفرح . إن الطفل السليم يفتح فمه عندما يرى الطعام ، ونشاهده أحيانا يحرك رجليه ويديه طالبا الأكل باستعجال ولا يستقر إلى أن يشبع .

فهذا المنظر الطبيعى للطفل ولابد من أن نحرص الحرص على سلامة حركاته من التوتر والهبوط فى الناحية العصبية .

وعلى كل حال فلابد من أن تحارب الآلام الإنسانية عموما ، وعند الضعفاء العاجزين مثل الأطفال خصوصا . وهناك قوانين تتبعها الطبيعة فيمكن التأكدمن سيرها الطبيعي لدى الطفل .

وحركة المشى متصلة بالصحة العامة ، وتظهر كاملة فى الحالات الطبيعية فلا تحاول الأمهات أن يتعبن أنفسهن فى تعليم الطفل المشى فالآباء والأهل جميعا يركزون اهتمامهم حول هذه النقطة وتراهم يراقبون حركات المشى بفارغ الصبر ، وعندما يبدأ الطفل يخطو خطواته الأولى يحدث ذلك سرورا عظيما . فلهم أن يسروا ، ولكن من العبث أن يحاولوا مساعدة الطفل فى ذلك ، فان تأخر المشى لا يضره كما هو الشأن فى تأخر التسنين وقد شاهد العلماء أن الشعوب البلقانية التى تعيش فى مناطق جبلية تحفظ ساقي الطفل مربوطة ربطا يحفظ استقامتهما إلى سن متأخرة بالنسبة للطفل ، وقد يبقى الطفل مربطا إلى السنة الثانية من عمره ومع ذلك فانه اول ما يفك يقوم ماشياً بعد يوم أو يومين ، وهذا أكبر دليل على أن القوة على المشى تأتى كاملة ، وعملية التوازن هى التي تؤخر الطفل قليلاً في القدرة على المشي المتواصل .

ويجب أن نذكر دائما أن الحالة النفسية لدى الطفل لاتستقر ، وهى فى تغيير مستمر ولذلك فى حاجة إلى تغييرات جسمية مختلفة . وعندما يكون الطفل فى حالة من الألم أو الحزن تراه يبحث بنفسه على تغييرها ، فلابد من مساعدته

بفهم أصل الاضطراب. والأسباب المزعجة المحدثة للانفعالات لا تكون بعيدة عن الهضم أو النوم .

يظهر الطفل فى بعض الاحيان فى حالة عصبية ويرفض اللعب لانه يكون فى حاجة إلى النوم ، فلا بد من أن يهيأ له الجو الملائم لينام . وعلى كل فلا يجوز بأى حال من الاحوال استعمال الضغط الا عند ما يتشبث متمسكا بشىء يؤذيه .

والخلاصة أن الطفل السليم هو الذى يقوم بحركات طبيعية يعبر بها عن الفرح أو الحزن ، ويجب أن نساعده فى أول أزمة تصادف الانسان وهى أزمة التسنين لأنها قد تعرضه لآلام مرة قد تكون سببا فى احداث توتر نفسي وعصبى ، وقد يؤدى ذلك الى تعقدات خطيرة . وأما حركات المشى فلا داعى للاهتمام بها ، فانها تتم بطريقة تلقائية .



من التردد إلى الكبت

ذكر شاب أنه لايزال يتذكر نفسه يضرب أمه في السنوات الأولى من الطفولة بعدما سمع ايحاءها له بالدونية والضعف. ومن هنا أثبت أن هذه الطريقة في المعاملة كانت موجودة قبل إدراكه وقدرته على التذكر، فلا شك أنها بدأت قبل تعلم الطفل الكلام وفي أثنائه فيكون انتباهه للألفاظ الأولى مقروناً بايحاء بالدونية وتثبت الأم أن هذا الشخص عندما كان طفلا صغيراً كان مسرفاً في البكاء إلى حد الازعاج وكان الجيران يشكون من بكائه لأنهم كانوا يقلقون بسبب ذلك. ووصل الأمر بوالده إلى أنه كان يدفع أجراً لخادمة تزور به أحد الأضرحة على قصد العلاج من شدة البكاء. فيستدل من هذا أن الطفل كان متعباً في تربيته، ولا شك أن هذا كان سببا في حدوث نوع من الفتور في عاطفة الأم نحو أولادها جميعا. كما أن السبب قد يكون راجعا إلى الحالة الجسمية عند الأم نفسها لأنه تبين لنا أنها كانت عصبية لا تصبر على تحمل أى تعب. وبنينا على موقف الأم القاسي من الشاب في طفولته

فى الوقت الذي كان فيه ضعيفا لا يستطيع المقاومة حدوث نوع من الدفاع السلبي يمحو أثر الايحاء بالدونية الذى تلقاه في وقت تعلمه اللغة أثناء السنوات الخمس الأولى . ويمكننا أن نرجع إلى ذلك الحين البذرة الأولى للشعور بالنقص الذى شعر به ولا يزال يشعر به إلى هذه اللحظة الحاضرة .

وعندما حاولت معه طريق التحليل اللامباشر بواسطة تأويل الصور تبين لنا موقف معين فى نظرته لصورة تمثل عطف الأمومة ، فشاهد فى الصورة سيدة تضم طفلا وهو يميل برأسه على صدرها وكأنه يطلب الرضاعة ومظهر السيدة الخارجي يدل على فقر وحاجة مادية ونشاهد وراءها أرضية زرقاء يمكن تشبيهها بلون السماء . واتجه ذهن الشاب رأساً إلى فكرة الأمومة قائلا : هذه امرأة ساذجة ويبدو عليها أنها فلاحة فقيرة جاهلة بكل شيء لاتشعر بأى شعور غير الأمومة وهى قبيحة المنظر لا تصلح كزوجة وإنما هى أنثى قامت بوظيفتها وهى إنتاج طفل ولا قيمة لها بعد ذلك . والغريب أن الشاب أظهر نوعا من الضيق ورمى الصورة مكتفيا بما قاله.

وعندما حاولت أن ألح عليه فى الرجوع إليها والاستمرار في التأمل ، عبر عن ضيق ثم نظر إلي الصورة وقال : أشاهد

بحراً وراء هذه السيدة وأعتقد أن هذه الأم تهم بالقاء إبنها في البحر . والغريب أنه أدلى بهذا دون أن يذكر الدوافع والأسباب التي يمكنها أن تجعل هذه الأم تقوم بهذا الفعل الجنائي الشنيع . وظلت الفكرتان المصحوبتان بشعور العطف والكره تتصارعان في ذهنه بشكل واضح ، وقد ظهرت عليه علامات التعب والقلق بما كان يقوم به من حركات تعبر عن الضيق والتذمر .

وأعتقد أن طريقة التأويل هذه كانت خير وسيلة لاظهار الصراع النفسي الذي كان كامنا في نفس الشاب منذ الطفولة. وقد أيد لنا هذا الموقف قيمة ما أدلى به المريض في التحليل النفسي المباشر إذ أثبت أن الأم كانت غير حنون نحوه في الطفولة ، فأحدث هذا الموقف عند الطفل نوعا من التضارب بين الميل الطبيعي الذي يدفع كل طفل نحو أمه وبين ما كان يشعر به من قسوة الأم وخشونة معاملتها فكأنه كان مضطراً إلى أن يفر منها إليها .

وجاءت أسباب أخرى ناتجة عن ضعف أعصاب الأم زادت في الصراع النفسي عند الطفل وأحدثت توتراً نفسيا وعصبياً ، إذ بدأت الأم تخاطبه بطريقة توحي إليه بالنقص ، فكانت

أول الألفاظ مؤذية ولذلك لجأ الطفل إلى الدفاع السلبي فمحى من ذاكرته كل ما يتعلق بالطفولة إلى الوقت الذى بدأ يقاوم فيه بطريقة أخرى وهى الضرب والسب. وفشلت كل محاولات استرجاع الذاكرة فيما يتعلق بالطفولة الأولى وذلك لأن التوتر كان موجوداً طيلة حياة الشاب وزاد بتأثير صدمات نفسية جرحت شعوره الخلقى إذ تعرض إلى اهانات أخلاقية، ولذلك نراه فى حياته الجنسية يكره (الجنس) ويميل إلى الناحية العاطفية ليسرف فيها . وأحدث له التعلق العاطفى قلقاً لازمه فى أوقات النوم وأبعد عنه الهدوء الضرورى المطلوب فى حالة النوم الطبيعى ، ولذلك لم يعرف الاسترخاء بمعناه الصحيح . ويتطلب العلاج تحليلا نفسياً عميقاً عن طريق مباشر وغير مباشر ، ولكن التحليل النفسى وحده لا يكفي فلا بد من القضاء على التوتر الذى كان نتيجة الاضطرابات الاجتماعية التي أحدثت العقد النفسية بكبت الانفعال .

إن الانفعال يقضى على الانتباه ، وطول الاضطرابات يتولد الانفعـــال فى فترات متقاربة وتقضي على الأسس الجسمية التي يقوم عليها الانتباه الإرادى . ولذلك يجب العناية بتمرين الشخص على اكتشاف قدرة التركيز . وأحسن وسيلة

للوصول إلى تكوين درجة من الانتباه تمكن الشخص من التقدم فى الحياة هي تعويد نفسه على التكيف مع البيئة الاجتماعية التى يصادفها فى سلوكه .

وأحدث الانفعال المكبوت عند الشاب إزدواجا فى كل اتجاه . واتضح موقف التناقض فى كل شعور وفى كل فعل وأصبح التردد مسيطراً : فتراه يحب ويكره ، ويقوى ويضعف يقدم وينفر ، ويشعر بالألم واللذة ، يميل إلى التجريد وإلى الموضوعية ، ويشعر بدوافع الذكورة والأنوثة ، وتتغلب علية نزعات النشاط والهبوط ، يقبل علي الحياة ويخاف من الموت . وشعر الشخص بنوع من الغرابة إذ أنه لم يجد فى نفسه أى ميل للبكاء بعدما سمع خبر وفاة والده الذى كان يسنده ويؤيده ويحميه فى كل مرحلة من مراحل الطفولة والشباب، وكان الوالد يعامل ابنه كصديق لا يفرض عليه أى رأى ولا يكلفه أى عناء بالخضوع إلى طرق خاصة فى المعاملة كما هو شأن بعض الآباء الذين يحرصون علي معاملة معينة . وحالة الازدواج في الاتجاه تعرض كل الشخصية إلى الانحلال.

نمو العاطفة

يهم أغلب الناس معرفة الحقيقة عن العاطفة لدى الطفل لأن العاطفة هى الصلة التى تربط الفرد بالمجتمع وعلى أساسها يقوم الشعور الانسانى ولا يمكن لأى فرد أن يعيش من غير شعور عاطفى يضمن له صلات تساعده فى وقت الحاجة وتشاطره الفرح فى وقت النجاح .

يولد الطفل خالياً من كل علاقة ، أى أنه يكون قابلا ليكون إبن من يعتنى به ويحميه من الجوع والبرد والألم ، ويجب أن نذكر ملاحظة قيمة وقف عليها بعض علماء النفس إذ أثبت أن أول علاقة تنشأ بين الطفل وأمه تكون على أساس رائحة اللبن وأما ادراك الشكل على الأساس البصرى فانه يتم متأخراً بعد مرحلة الشم . ونستخرج من هذا فكرة العلاقة الأولى بين الابن وأمه ، وتوضح لنا هذه الفكرة أن العلاقة تبدأ على أساس ارضاء غريزة الأكل ولهذا نجد اسم الأم محتوياً فى أغلب اللغات على حرف « م » الموجود أيضا فى فعل الأكل « مم » وحرف الميم حرف شفوى يمثل حركة الإمتصاص عند الطفل .

ولهذا السبب القائم على علاقة الطعام — وهو الوظيفة الحيوية بالنسبة لكل كائن حى — نجد العلاقة بين الابن والأم أكبر من أى علاقة أولى قبل تدخل العوامل النفسية والاجتماعية . وهذا التعلق العاطفى الصادر من الطفل نحو أمه هو الذى تزيد شدته مع الشعور بالرأفة والحنو الى حماية الضعيف . ويمكننا أيضا أن نقول عن عاطفة الأم نحو ابنها إنه تحول نفسى للعلاقة الجسمية التى كانت تربط بين الأم والطفل فى مراحل النمو وهو جنين .

ونشاهد أن عاطفة الأم متشابهة بين أفراد الأمهات اللهم الا فى بعض الحالات الشاذة . أما عاطفة الأطفال نحو أمهاتهم فانها تختلف حسب الظروف العائلية . كل منا فى حالة الطفولة تعرض الى سؤال تكرر على سمعه مرات عديدة : من تحب أكثر « بابا » أو « ماما » ؟ ونلاحظ أن الاجابة تختلف باختلاف الحالة الحاضرة فالذى يكون قد أحسن أخيراً الى الطفل يكون هو المحبوب أكثر ، وعند ما يفضل الطفل أحد الأبوين على الآخر يؤنبه هذا ذاكراً له احسانه ويهدده بحرمانه مما كان يقدمه من أشياء ترضيه .

ويجب أن نلاحظ أن هذه المواقف الغريبه من الأبوين

اللذين يعطيان قيمة كبرى لإجابات الطفل عن ميوله العاطفية تؤثر تأثراً خطيراً فى النمو العاطفى لدى الطفل لأنه يربط فى داخل نفسه بين العاطفة والإحسان ويميل بعد ذلك إلى استعمال العاطفة وسيلة لكسب أشياء مادية . وبدلا من أن تكون العاطفة غاية إنسانية تربط بين الأفراد فانها تنقلب إلى وسيلة يتاجر بها الطفل تجارة صريحة .

وبجانب العوامل الغذائية مثل الأكل وغيره نجد للغريزة الجنسية أثرها فى توجيه العاطفة بين الطفل وأبويه . شاهد الملاحظون النفسيون من قبل أن الأب يميل إلى الطفلة بينما الأم تميل إلى الطفل الذكر . وعبر فرويد عن هذا التعلق العاطفى الزائد بين الجنسين المختلفين فى العاطفة العائلية بعقدة أوديب ويشير بذلك إلى الأسطورة اليونانية القديمة التى صورت لنا علاقة أوديب بأمه . ويعتقد قوم أن عقدة أوديب عقدة مرضية وهذا الإعتقاد خاطىء ، لأن العلاقة بين الأب وإبنته وبين الأم وإبنها علاقة طبيعية فى أغلب الاحيان رغم تمايزها عن العلاقات العاطفية التى تربط بين الأب والإبن وبين الأم وإبنتها . والخطورة تنشأ فى حالات خاصة عند ما يكون الطفل وحيداً فان تعلق الأم به يكون زائداً

عن الحد وتركز الام كل قواها ونشاطها فى صورة عاطفة حب نحو الطفل وكذلك الشأن فى حالة إنفراد البنت فان الاب يضغط بعاطفته عليها . وهذه المواقف فى العطف من الآباء عند ما يُفقد الزوج وتركز الام كل عاطفتها نحو إبنها . فى مثل هذه الحالة ينشأ نوع من التداخل العاطفي بين الام وابنها بدرجة شديدة إلى حد أن الطفل لا يجد فرصة لتكوين شخصية مستقله ، ولا يشعر الطفل بأى مسئولية ولا يجد الحاجة لبذل أى مجهود ويظل يعول على أمه إلى سن متأخرة وعند بلوغه سن الرجولة إما انه يظل طفلا فى سلوكه النفسى واتجاهاته الذهنية واما أنه يفشل فى كل أفعاله الإنشائية ويكره كل عمل من الأعمال التى تتطلب تعبا وتقوم على الإستقلال بالذات . وينشأ عند الطفل فى مختلف مراحل نموه نوع من الخوف العام هو الخوف من الحياة ويظهر لديه اضطراب واضح عند ما يوجد فى مواقف تتطلب عطفا على الغير أو عطف الآخرين عليه. ويكون هذا الاضطراب سببا فى انعزال الشخص وعدم الوصول الى كسب صداقة ثابتة .

وفى حوالى سن العشرين يعرض بعض الإشخاص الذين تعرضوا الي اضطراب فى نموهم العاطفى الى نوع من

الصراع الشديد قد يظهر فى صورة آلام الرأس ، ويكثر من التردد فى كل أفعـــاله . والصداع ناتج عن التردد الداخلي والحيرة الشديدة لأن الشـاب الذى ظل متعلقا بأمه وبأبيه مدة طويلة من الزمن لا يستطيع الاستقلال بذاته بسهولة ـ ولكن الشخصية القائمة على الميول الطبيعية تدفع إلى الاستقلال ـ وتحدث معركة فى أعماق النفس بين حب الأم والاستمرار فى التعلق بها وقد تؤدى هــذه الحالة إلى شلل إرادى بحيث أن الشخص يصير عاجزاً عن القيـام بأى عمل منتج بل قد تصيبه نوبات من الحزن والكآبة .

وهذه المواقف الشاذة تثبت أن شدة العطف الموجه نحو الطفل يضره ضرراً بليغاً ويقضى على أهم عضو فى الإنسـان وهو الشخصية ، فلابد من أن تعطى الأمهات لهذا الموضوع حقه من العناية وتعرف أن هذه الحقائق النفسية الخاصة بالنمو العـاطفي لدى الطفل قد تنقـذ أسرة كاملة من التعرض للاضطرابات كما أنها تحقق الغاية الإنسانية من التربية. ولتعلم للأمهات أن العاطفة كالنار القليل منهـا يدفىء والكثير منها يحرق .

فالاسراف الزائد عن الحد فى التعبير العاطفى والتعلق

الزائد يكسب الطفل حساسية عصبية زائدة . ونراه يميل في كل مراحل حياته إلي المواقف العاطفية ويتأثر جهازه العصبي الداخلي المشرف على العمليات الحيوية مثل التنفس والهضم والدورة الدموية والحساسية الجنسية . ونشاهد عند هؤلاء الأطفال المحاطين بعناية عاطفية زائدة ميلا مبكراً إلى الأفعال الجنسية ونستغرب عندما نشاهد البعض منهم يقبل على أفعال سرية في سن مبكرة جداً . ويقع الآباء في حيرة بدلا من الاعتدال في الحب والتدليل وبعض الآباء ينقلب دلالهم وعطفهم الى ثورة وتهديد عندما يشاهدون أطفالهم يقومون بأعمال تسبق سنهم ونموهم . وشرح هذه الحالة يسهل عندما نعلم أن العناية الزائدة والحب الشديد يولدان حساسية عامة تدفع الطفل الى هذه المواقف المبكرة . ويمكننا أيضاً أن نصل الى هذا الفهم عن طريق نفسي آخر اذ أن الاسراف في العطف على الطفل يدفعه الى الشعور الأناني ويجعله يركز همه في نفسه ويكون ذلك سببا في انطوائه على نفسه ومن هذا الانطواء يصل الى اكتشاف اللذة الجنسية في سن مبكرة .

ويمكننا أن نذكر في باب التحدث عن آثار مشكلات الطفولة حالة التوقف في النمو النفسي التي يتعرض لها كثير من الناس .

بما أن الأطفال يعيشون فى عالم مهيأ للكبار ، فانهم يصادفون إشكالات تفوق قدرتهم وتمنعهم عن التكيف وبهذا فان نموهم النفسى يتوقف ويتعرضون إلى السلوك الطفلى بعد بلوغهم وفى مراحل حياتهم المختلفة أو يتعرضون إلى الفشل كما سبق وأوضحنا . ونشير هنا إلى حالة فتاة فى الثانية والعشرين من عمرها ذات ذكاء خارق تتمتع بثقافة علمية عالية ولكنها تسلك سلوك الاطفال فى كثير من المواقف ، وسلوكها الطفلى ظاهر فى بعض الأحيان ومختف فى بعض الأحيان الأخرى ، فانك مثلا تستطيع أن تدرك التوقف فى النمو النفسى عند هذه الفتاة عندما تشاهدها تضطرب اضطرابا شنيعا وتفقد السيطرة على أعصابها عندما تشاهد قطة ، ويتهيأ لها أن هذه القطة ستقفز نحوها لتؤذيها وتعلل بهذا التهيؤ خوفها الشاذ الذي يتنافى مع ثقافتها وحدة ذكائها .

ولكننا فى الحقيقة عندما نعلل سلوكها من جميع الوجوه ونرجع إلى الوقائع التى تبرز طفولتها فاننا نجد هذه الفتاة قد تعرضت إلى صدمة عنيفة فى الطفولة وهذه الصدمة ناتجة عن إهمال أهلها لها وتسليمها إلى مربية قاسية كبتت حريتها

بشكل عنيف وأهانتها إهانات متعددة وعرضتها إلى الخوف من سلطتها وعنفها وما يصحبهما من عقاب قاس .

بدأ صراع هذه الفتاة من يوم ولادة أختها التى أثارة فى نفسها الغيرة إلى حد أنها حاولت مرة التخلص منها وكان نواة منبع الشعور بالذنب . وفى سنتها الثالثة تعرضت لقسوة المربية الأولى التى كانت تحرمها من كل حرية ، وجاءت مربية وكانت مشوهة وتعرج ، واستمرت حالة التعذيب إلى سن السادسة وهى تعيش فى رعب من استبداد هذه الخادمة أيضاً التي كانت تعذبها وتعذب أختها تعذيبا قاسيا . وتذكر هذه الفتاة أن هذه الأيام التى عاشتها تحت استبداد هذه الخادمة كانت أياما كلها خوف . ولهـذا فانها توقفت فى نموها الانفعالى وتعرضت إلى اضطراب الخوف المكبوت الذى يظهر فى صورة الخوف من القطط وهذا الخوف الحالى الذى لا يتفق مع السن يحدث انزعاجا وخوفا من الجنون لأنه يتنافى مع العقل ، والحقيقة أنه راجع إلى صراع الطفولة والمشكلات التربوية .

وحدث أن غير الاهل هذه الخادمة القاسية بأخرى مثقفة

وطيبة وتدرك سر التربية الحكيمة فأحبتها هذه الطفلة حباً شديدا وتعلقت بها ولكن الأهل فصلوها من الخدمة وعرضوا ابنتهم إلى صدمة عنيفة تحت تأثير الخوف من خادمة جديدة تشبه الخادمة القاسية التى ربتها فى جو كله خوف وانزعاج .

وأحدث هذا الانفصال عن الخادمة الطيبة انفصال نفس الطفلة عن أهلها ، أى أنها كرهت أبويها ودخلت فى دور من العناد والصراع ، وانتهى الأمر إلى رغبة فى الفراق واستطاعت تحت تأثير الإضراب عن الأكل وتعريض حياتها للخطر أن تسافر بعيدة عنهم لتعيش عيشة فيها كثير من الإسراف فى الحرية ، وكان ذلك كله تعويضا للكبت الشديد الذى عاشته فى أيام الطفولة الأولى .

وبما أن أهلها كانوا من طبقة غنية فان كرهها أدى بها إلى التطرف فى نزعة هدامة اتخذت صوراً سياسية معينة واندفعت فى هذا الاتجاه متهورة متعرضة إلى خطر اجتماعى كما أنها عرضت حريتها إلى خطر محقق . ويجب أيضا أن نشير إلى أنها أصيبت باندفاع شديد فى كل أفعالها

وإحساساتها ، فكأن حياتها كانت تسير فى خطى واسعة إلى درجة أن ميولا جنسية سيطرت عليها منذ الطفولة المبكرة. وتعرضت إلى عادات سيئة هزت كيانها العصبي .

والخلاصة أن سعادة الطفل قائمة على نوع من العطف الذى يظهر من الآباء نحوه ، فيجب ألا ينسى أهل الطفل أنفسهم وينقادون إلى ميولهم الغريزية فى معاملة طفلهم لأن ذلك قد يحدث أضرارا نفسية خطيرة ، فلابد من الاقتصاد والامتناع عن الإفراط والتفريط . وتربية الطفل تقتضى إتزانا وحكمة . وبذلك نحمى أطفالنا من الاضطرابات الشخصية العديدة التى تولد العقد النفسية وما يتبعها من مشكلات اجتماعية خطيرة .



فهرس

الاطمئنان النفسى

« للدكتور »

أبو مدين الشافعى

بحث نفسى مبسط يشرح الطرق العمليـة للتخلص من الضيق والتعب .

أبواب مختلفـة تدرس شتى أنواع النشـاط النفسى وعلاقتهـا بالراحة .

يطلب من المؤلف ٢٣ شارع أمين باشا سامي « المنيرة » - تليفون ٢٨٤٦٨

الثمن ٢٥ قرشاً صاغاً

دار الفتوح للطباعة
٧٣ شارع منصور

5.4
254
Bibliotheca Alexandrina
0617265

الثمن ١٠ صاغ